غير مرخصة للطباعة

المحور الأول

التعريف العام بالإسلام

١١

حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة تجريبية

غير مرخصة للطباعة

من الدستور الإلهي للبشرية

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦٢].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ في الجنة غُرفًا يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدَّها الله تعالى لمَن أطعم الطعام، وأَلَانَ الكلام، وتابع الصيام، وأفشى السلام، وصلَّى والناس نيام**». رواه أحمد وابن ماجه.

عن أبي صالح قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيّها الناس، إنما أنا رحمة مهداة**». رواه الدارمي وابن أبي شيبة.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، ومَن سار على دربه.

(أما بعد)

فهذه صحائف قد كتبتها، استجابة لطلب بعض الإخوة، لألقي شيئًا من الضوء على مشروع أمتنا الحضاري، الذي تقدمه لخلاص البشرية وهدايتها، في مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي أو «الألفية الثالثة» كما يسمونها.

ولكني آثرت أن أعبر عن هذا «المشروع» بكلمة «الرسالة» فهي أقرب إلى مصطلحاتنا الإسلامية، وإلى جونا الإسلامي.

وقد رأينا في هذه الصحائف حاجة البشرية الماسة، وخصوصًا في الغرب المتفوق ماديًّا ـ إلى هذه الرسالة التي تمزج المادية بالروح، وتصل بين الدنيا والآخرة، وتجمع بين الربانية والإنسانية، وتوفق بين العقل والقلب، وتوازن بين حرية الفرد ومصلحة المجتمع.

QaradawiBooks.com

صحيح أن الغرب قد بلغ مبلغًا عظيمًا في الرقي المادي، وحقق الثورات المعروفة في عالم اليوم: الثورة التكنولوجية، والثورة الإلكترونية، والثورة الفضائية، والثورة البيولوجية، وثورة المعلومات، وثورة الاتصالات، ولكن إنسان الغرب الذي وضع أقدامه على سطح القمر، لم يستطع أن يحقق لنفسه السكينة والسعادة على ظهر الأرض، ولن يجد ذلك إلا في رسالة الإسلام التي تعطيه الإيمان، ولا تحرمه العلم، وتربطه بالآخرة، ولا تحرم عليه الدنيا، وتصله بالسماء ولا تنتزعه من الأرض.

وإنما تؤتي هذا الرسالة أكلها، وتحقق أهدافها العالمية، إذا قدمتها أمة تمثلها بحق، وتجسدها بصدق، علمًا وعملًا، وفكرًا ودستورًا، وخلقًا وسلوكًا.

ولهذا كانت حاجة الأمة المسلمة إلى هذه الرسالة أشد من حاجة الآخرين إليها، وهي أحق بها وأهلها، وهي التي تجعل منها «الأمة الوسط» الشهيدة على البشر، و﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وهي وحدها القادرة على حل مشكلات الأمة، والنهوض بها لأداء دورها في العالم، كما هو مطلوب منها.

على أن تختار الأمة الاتجاه الصحيح، الذي يصلح لها، وتصلح له، من بين اتجاهات عدة تنتسب للأسف إلى الإسلام، مثل الاتجاه الاجتراري، والانتحاري، والاعتذاري، والافتخاري، والاحتضاري، والاشتجاري. وقد شرحنا المراد بكل منها.

أما الاتجاه الذي يجب أن تتبناه الأمة، فهو ما سميناه «الاتجاه الحضاري». وهو الذي يقدم الإسلام على أنه رسالة حضارية عالمية

QaradawiBooks.com

متميــزة، لها مقوماتهــا وخصائصها من الشــمول والوضــوح والتوازن والتكامــل والعمق، وهذا الاتجاه هو الذي يدعو إليه شــعار الوســطية الإسلامية الذي نؤمن به.

أسأل الله تعالى أن يوفق أمتنا للقيام برســالتها الربانية العالمية، في هذا القرن الجديد، وتقدم بها الإسلام رحمة للعالمين، وهداية للحائرين.

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النور: ٤٦].

الدوحة في جمادى الآخرة ١٤٢١هـ

أيلول (سبتمبر) سنة ٢٠٠٠م

يوسف القرضاوي

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

الارتقاء المادي الهائل في الحضارة الغربية

لم تصل حضارة من الحضارات طوال التاريخ إلى ما وصلت إليه الحضارة الغربية المعاصرة التي تسود عالمنا اليوم، والتي بلغت الأوج في التقدم العلمي والتكنولوجي، مما كان له أثره في اختصار المكان والزمان للإنسان، وتوفير الرفاهية والراحة له حتى أصبحت حاجاته تقضى بضغط على زر، بل يكاد الآن يستغني عن الأزرار فهو يدخل الباب فيفتح له وحده، ويضع يده تحت الصنبور، فيصب الماء عليه، ويضع قدمه على السلم فيصعد به، إلى غير ذلك مما غدا معتادًا في حياتنا اليوم.

ولقد استطاع الإنسان أن يغزو الفضاء، ويبعث بأقماره تدور حول الأرض، بل لقد نزل الإنسان بالفعل على سطح القمر، وجلب منه صخورًا وأتربة، وضعها تحت بحثه وتحليله. ويحاول الآن الوصول إلى الكواكب الأبعد في الفضاء الكوني، مثل الكوكب الأحمر، المريخ.

ولا ريب أن إنجازات العلم المادي في عصرنا إنجازات هائلة، لو ذكر عشر معشارها لمن كان قبلنا لاتهموا قائله بالجنون. وهي تدخل تحت قوله تعالى في القرآن: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

شقاء الإنسان في هذه الحضارة:

ولكن يبقى هنا سؤال في غاية الأهمية، وهو: هل استطاع العلم الذي رفع الإنسان إلى سطح القمر أن يحقق له السعادة على ظهر الأرض؟

الواقع المر يقول: لا. فإن العلم بمفهومه الغربي ـ وهو علم مادي بحت ـ وفر للإنسان راحة الجسم، ولم يوفر له راحة النفس، حقق له الرفاهية المادية، ولم يحقق له السكينة الروحية، هيأ له الوسائل والأدوات. ولم يهيئ له المقاصد والغايات. ولهذا عاش الإنسان مزوق الظاهر، خراب الباطن، أشبه بقبور العظماء، مشيدة مزخرفة، وليس فيها إلا عظام نخرة.

ومن ثم رأينا الناس الذين يعيشون تحت سلطان هذه الحضارة يشكون من القلق والاكتئاب والخوف والأسى واليأس، والغربة النفسية، والشعور بالضياع وتفاهة الحياة، وأنها حياة لا هدف لها ولا رسالة ولا طعم ولا معنى. وهذا يحطم الإنسان من داخله.

ولا غرو أن كثرت العيادات النفسية والعصبية، حتى غدت تعد بالألوف، ومع هذا لا تكفي زائريها، وقلما يجدون عندها ما يشفي عليلًا، أو يروي غليلًا.

إن الناس يشكون في هذه الحضارة من الانحلال الأخلاقي، والقلق النفسي، والتفسخ العائلي، والاضطراب العقلي، والتفكك الاجتماعي، ومن انتشار الجريمة إلى حد يثير الخوف والذعر لدى جماهير الناس[١].

(١) انظر كتابنا: الإسلام حضارة الغد صـ ٢٧ ـ ٩٢، فصل: آفات الحضارة المعاصرة وآثارها على الحياة البشرية، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

لقد بالغت الحضارة الغربية في إعطاء الحرية الشخصية للإنسان، ليفعل ما يشاء ما دام لا يعتدي على غيره، فأفسدت عليه فطرته، ولم تستطع إشباع نهمه كله، فالشهوات كلما ازداد المرء منها عبًا، ازداد معها عطشًا، ولا يوجد في الكون كله شيء حر حرية مطلقة، فالبواخر في المحيطات، والطائرات في الفضاء، تسير في مسارات محددة، لا يجوز لها أن تتعداها، وإلا هددت بكوارث لا تحمد عقباها ولا تعرف نتائجها.

والحضارة لم تجنِ على الإنسان وحده، لقد جنت على البيئة من حولها، فلوثتها بدخان مصانعها وفضلاتها، وآثار إشعاعها، ونفاياتها النووية، وتدخلاتها الكيماوية في النبات والحيوان، وأكثر من ذلك آثار الهندسة الوراثية، وقد بدأت هذه النتائج تبدو للعيان في مثل «جنون البقر» وغيره من المشكلات، وما يكنه الغد أشد وأقسى.

أضف إلى ذلك الإخلال بالتوازن الكوني، كما يبدو فيما ذكروه من «ثقب الأوزون»، ولا ندري ماذا بعد ذلك؟

والليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيب[1]!

فهذه ثمار طبيعية لصنع الإنسان بنفسه وما حوله، إذا تصرف في نفسه وفي الكون وكأنه إله لا يسأل عما يفعل، وما هو إلا مخلوق لخالق عظيم، يجب عليه أن يخضع لنواميسه الكونية، وقوانينه الشرعية، وبذلك ينجو ويفلح.

سر المعاناة في هذه الحضارة:

وسر ما يعانيه الناس في الحضارة المعاصرة: أنها حضارة نسيت «الله» فأنساها نفسها. إنها عاشت جسمًا بلا روح، أو قل: جسم فيل بروح نملة!

(١) ذكره النويري في نهاية الأرب (١٣٤/١)، نشر دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

وقال الشاعر الهندي الكبير طاغور لأحد مفكري الغرب: صحيح أنكم استطعتم أن تحلِّقوا في الهواء كالطير، وأن تغوصوا في البحر كالسمك، ولكنكم لم تحسنوا أن تمشوا على الأرض كالإنسان.

بل وجدنا من النقاد الغربيين أنفسهم من يشكو من الخواء الروحي في هذه الحضارة، بل من يدقون جرس الإنذار محذرين من التمادي في هذه الحياة المادية الإباحية النفعية، التي لا تطمئن الإنسان من قلق، ولا تؤمنه من خوف.

تحذيرات رجال العلم والفكر والأدب:

لقد توالت تحذيرات العلماء والفلاسفة والمربين والأدباء والسياسيين وغيرهم، من مادية الحضارة الغربية، وإغراقها في الآلية الصناعية، والحياة الاستهلاكية.

من ذلك: تحذيرات «ألكسيس كاريل» و«رينيه دوبو» من رجال العلوم الطبيعية، ومن الحائزين على جائزة نوبل، وسننقل بعض كلامهما فيما بعد.

ومن ذلك ما قاله الفيلسوف الأمريكي الشهير «جون ديوي»: «إن الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها، ولا تثق بقوة هذا العلم في خلق قيم جديدة، لهي حضارة تدمر نفسها بنفسها[1].

وأوضح منه ما قاله المفكر الكبير المؤرخ البريطاني المعاصر «توينبي» إذ ينقل عنه الكاتب الأمريكي «كولن ولسون» مقولته: «لقد

(١) إنسانية الإنسان لرينيه دوبو صـ٤٣، ترجمة د. نبيل صبحي الطويل، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

QaradawiBooks.com

أغرت فنون الصناعة ضحاياها، وجعلتهم يسلمونها قيادة أنفسهم، ببيعها «المصابيح الجديدة» لهم مقابل «المصابيح القديمة»، لقد أغرتهم فباعوا أرواحهم وأخذوا بدلًا منها «السينما» و«الراديو». وكانت نتيجة هذا الدمار الحضاري الذي سببته تلك «الصفقة الجديدة» إقفارًا روحيًّا، وصفه «أفلاطون» بأنه «مجتمع الخنازير» ووصفه «ألدوس هكسلي» بأنه «عالم زاه جديد»!

ويأمل توينبي في نهاية البحث بأن خلاص الغرب لا يكون إلا بالانتقال من الاقتصاد إلى الدين[1].

وقال الأديب الأمريكي الكبير «جون شتاينبيك» في خطاب أرسله إلى صديقه «ادلاي ستيفنسون»: «إن مشكلة أمريكا هي ثراؤها، وأن لديها أشياء كثيرة، ولكن ليس لديها رسالة روحية كافية، إننا في حاجة إلى ضربة تجعلنا نفيق من ثرائنا. لقد انتصرنا عل الطبيعة، ولكننا لم ننتصر على أنفسنا».

وعبر الشاعر الألماني «بروشرت» عن مأساة الأجيال الجديدة، الناشئة في ظل الحضارة الآلية بقوله: «نحن جيل بلا رابط ولا عمق. عمقنا هو الهاوية. نحن جيل بلا دين ولا راحة، شمسنا ضيقة، حبنا وحشية، وشبابنا بلا شباب. إننا جيل بلا قيود ولا حدود ولا حماية من أحد»!

وفي أكثر من كتاب، ومن محاضرة للمفكر الفرنسي جارودي حمل على الحضارة الغربية، وسماها الحضارة الفرعونية، فقد تهيأ

(١) سقوط الحضارة لكولن ولسون صـ١٦٤، ١٦٥، ترجمة أنيس زكي حسن ، نشر دار الآداب، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م. وهو كاتب أمريكي معروف ناقد للحضارة الغربية أيضًا، وقد وصف الحياة في نيويورك بأنها «غطاء جميل لحالة من التعاسة والشقاء»!

QaradawiBooks.com

لها العلم، ولم تضم إليه الحكمة، وعنيت بالآلة ولم تعن بالإنسان، ولا سيما الحضارة الأمريكية التي تقوم على تأليه الدولار، و«وحدانية السوق» بدل «وحدانية الله» وقد ألف أخيرًا كتاب «أمريكا طليعة الانحطاط»[١].

ولا يقلل من شهادته اهتداؤه إلى الإسلام، ومثله «ليوبولد فايس» أو محمد أسد، و«رينيه جينو» أو عبد الواحد يحيى.

ومن السياسيين الدين عنوا بهذا الجانب «جون فوستر دالاس» وزير الخارجية الأمريكي الشهير في عهد «آيزنهاور» صاحب كتاب «حرب أم سلام»، فقد خصص فصلًا من كتابه بعنوان «حاجتنا الروحية» بين فيه ما ينقص أمريكا، فقال: «إن الأمر لا يتعلق بالماديات، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية، إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوي. فبدونه يكون كل ما لدينا قليلًا. وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم، أو الدبلوماسية مهما كانت فطنتهم، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم، أو القنابل مهما بلغت قوتها».

ومن أهم ما ذكره: ما نقله عن الرئيس «ولسون» مما كتبه قبيل وفاته: «إن اختصار المسألة هو: أن حضارتنا لا تستطيع البقاء والاستمرار من الناحية المادية، إلا إذا استردت روحانيتها»!

وحسبنا هذه الشهادات من أهلها[٢].

(١) نشرته دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م.

(٢) من أراد الاستزادة فليراجع كتابنا: الإسلام حضارة الغد صـ ٩٣ ـ ١١٦، الفصل الثالث: عقلاء رجال الغرب يدقون أجراس الإنذار.

QaradawiBooks.com

عجز العلم في حضارة اليوم عن إسعاد البشرية:

لماذا يصرخ الناس في عصرنا، ويضجون بالشكوى من شقائهم، وشعورهم بأن الحياة بلا معنى؟ ألا يستطيع العلم الكوني، العلم الطبيعي والرياضي، وما أثمره من تكنولوجيا غيرت وجه الحياة، قربت البعيد، وأنطقت الحديد، ويسرت العسير: أن يهب السعادة للناس، ويزيح الشقاء والمرارة والبؤس، والتفاهة، التي يعاني منها الناس؟ الحق أن العلماء الكبار أنفسهم أكدوا عجز العلم عن القيام بدور المنقذ.

شهادات كبار العلماء:

من هؤلاء العلامة «ألكسيس كاريل» صاحب الكتاب القيم الشهير «الإنسان ذلك المجهول» الذي نقد فيه الحضارة الغربية نقدًا علميًّا رصينًا، قائمًا على منطق العلم ومسلماته.

يقول «ألكسيس كاريل» في كتابه ذاك: «إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب، لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم، ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا»[1].

وفي موضع آخر يقول: «يجب أن نحرر الإنسان من الكونيات التي خلقها علماء الطبيعة والفلك. تلك الكونيات التي حبس فيها الإنسان منذ عصر النهضة، إذ على الرغم من ضخامته الهائلة، فإن عالم المادة

(١) الإنسان ذلك المجهول صـ٣٧، ترجمة شقيق أسعد فريد، نشر مكتبة المعارف، بيروت، ط ٤، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

QaradawiBooks.com

أضيق من أن يتسع للإنسان، فهو كبيئته الاقتصادية والاجتماعية، لا يلائمه».

ويختم الكتاب كله بقوله: «لقد حان اليوم الذي نبدأ فيه العمل لتجديد أنفسنا. ولكننا لن نضع برامجًا، لأن البرنامج قد يخنق الحقيقة الحية خلف درع صلب، إنه سيمنع انبثاق غير المتنبأ به، ويحبس المستقبل داخل حدود عقلنا»[١].

وما قاله «ألكسيس كاريل» أكده عالم آخر، يعتبر امتدادًا لكتاب «ألكسيس كاريل»، بعد نحو ثلث قرن من الزمان.

ذلك العالم هو «رينيه دوبو» الأمريكي الجنسية الفرنسي الأصل. وكتابه هو «So Human An Animal» الذي ترجمه إلى العربية الدكتور نبيل صبحي الطويل تحت عنوان «إنسانية الإنسان» يقول «دوبو» في كتابه: «نحن ندعي أننا نعيش في عصر العلم، إلا أن الحقيقة هي أن الميدان العلمي كما يدار الآن، ليس فيه توازن يسمح للعلم بأن يكون ذا فائدة تذكر في إدارة أمور الإنسان؟ لقد جمعنا جسمًا هائلًا من المعلومات حول المادة، وتقنية قوية لضبط واستغلال العالم الخارجي. ومع ذلك لا يزال جهلنا فاضحًا بالآثار التي قد تنتج عن اللعب بمهارتنا هذه، ونتصرف في غالب الأحيان وكأننا آخر جيل يعيش على هذه الأرض.

إن الحياة الشاذة التي يعيشها عامة الناس الآن تخنق وتعطل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقلية، ونمو الإمكانات الإنسانية.

(١) الإنسان ذلك المجهول صـ ٣٥٧ ـ ٣٥٩.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إن كل المفكرين قلقون على مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية ومحيطية سخيفة عابثة باطلة، نخلقها نحن لهم بدون أي تفكير، وأكثر ما يزعج هو علمنا بـأن الخصائص العضوية والفكرية للإنسـان تخططها اليوم البيئات الملوثة، والشـوارع المتراصة والأبنية الشـاهقة، والخليط الحضري المتمرد، والعادات الاجتماعية التي تهتم بالأشياء، وتهمل البشر»[١].

«منذ قرنين تقريبًا والإنسـان الغربي يعتقد أن خلاصه سـيأتي عن طريـق الاكتشـافات التكنولوجيـة، ولا جدال فـي أن المكتشـفات التكنولوجية زادت من غناه المادي وحسنت صحته العضوية. إلا أنها لم تجلب له بالضرورة الغنى والصحة اللذين يولدان السعادة»[٢].

وفي موضع آخر يقول: «وتوجهنا العلوم المادية بتناقضات لا حلول لها عندما نحاول فهم حدود الفضاء، أو بدايات الزمن، أضف إلى ذلك أن الإنجازات العلمية تثير ـ بصورة عامة ـ مسـائل أخلاقية يعتبرها كثير من العلماء خارج نطاق كفاءاتهم، ويشيرون إلى أن العلم والتكنولوجيا أدوات ووسـائل ليس لها أخلاق، ويمكن اسـتعمالها لخير البشرية أو لدمارها، والاعتقاد بأن العلم قادر على حل أكثر المشـاكل العلمية أمر يكذبه الوعـي المتزايد بـأن تكنولوجيا العلم تثير مشـاكل جديدة في محاولاتها لحل المشكلات القديمة»[٣].

وفي حديث بعنوان: «هل تستطيع أمريكا التغلب على خرافة النمو»؟ كان سكرتير وزارة الداخلية «اسـتيوارت. ل. أودال» شجاعًا عندما قال:

(١) إنسانية الإنسان صـ٣١.
(٢) المصدر السابق صـ١٨٦.
(٣) المصدر السابق صـ٢٣٠.

QaradawiBooks.com

«إنه من السهل اعتبار أمريكا التي صنعها الإنسان. كارثة على مستوى القارة». لقد ذكر «أودال» مستمعيه: «إننا نملك أكبر عدد من السيارات وأسوأ ساحات «الخردة» بالمقارنة لأية دولة أخرى في العالم! نحن أكثر سكان العالم تنقلًا ونتحمل أكبر قدر من الازدحام! ونولد أكبر قدر من الطاقة، وفي أجوائنا أكثر الهواء تلوثًا في العالم». ولقد نقل عن رئيس بلدية «كليفلند» قوله مازحًا:

«إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع إنسانًا إلى القمر... بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات»[1]!

وشهادة أخرى من الدكتور «هنري لنك» طبيب النفس الأمريكي الشهير، إذ يقول معارضًا للذين ينكرون الإيمان بالغيب، باسم العلم واحترام الفكر، مبينًا أن العلم وحده لا يستطيع أن يحقق للإنسان أسباب السعادة الحقة:

«والواقع أنه يوجد الآن في كل ميدان من ميادين العلم من الظواهر ما يؤجج شعلة ذلك الضلال، وأعني به تعظيم شأن الفكر، ومع ذلك كان علماء النفس هم الذين توصلوا إلى أن الاعتماد المطلق على التفكير فحسب (أي بعيدًا عن الروح) كفيل بهدم سعادة الإنسان.

فلن نهتدي إلى حل شافٍ لمشكلات الحياة العويصة، ولن ننهل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها، فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك واضطراد التخبط، وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة وإخضاعها،

(١) إنسانية الإنسان صـ٢١٩ ـ ٢٣١، فصل: التخلص من أسطورة النمو والتنمية.

QaradawiBooks.com

فلن تؤدي هذه العلوم إلى تحرير العقول التـــي ابتدعتها وابتكرتها، بل ســـتقود حتمًا إلى انهيار هذه العقول وتعفنها، كما أن هذا التوحيد لا بد أن يأتي عن طريق العلم، وأعني به طريق الإيمان»[1].

علم الغرب معزول عن الدين:

أضف إلى ما ذكره هؤلاء العلمـــاء الغربيـــون: أن العلم في الغرب ـ لظروف تاريخية معروفة ـ نشأ بمعزل عن الدين، بل نشأ مضادًا للدين، فقـــد وقفت الكنيســـة وقفتهـــا المعروفـــة فـــي التاريخ، معاديـــة للعلم ومكتشفاته، فتركها العلم، ومضى وحده، وحسب العلماء أن طبيعة الدين أن يقف في وجه العلم، فأعرض عن الله ـ مصدر الدين ـ ولم يذكر اسمه في بحوثه وابتكاراته وإنجازاته.

كانت هذه هي الروح السائدة على العلم ورجاله في حضارة الغرب، فلم تـــدرس قوانينه على أنها «ســـنن الله في الكون». بـــل هي إفرازات الطبيعة الصماء، ولم يقل العلمـــاء لطلابهم: هذا من صنع الله في خلقه، بل قالوا: هذا من صنع الطبيعة! والطبيعة أعجز من أن تصنع شيئًا، ولكن هذه الإبداعات التي نشهدها في الكون كله، أرضه وسمائه، إنما هي من صنع الله الذي أتقن كل شيء، ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. هذا ما نؤمن به نحن المسلمين.

ثم إن الغرب قد اســـتخدم منجزات العلم في الخير والشر، والنفع والضر، والحياة والموت، ولم يبالِ أن يجعل من منتجات العلم أدوات

(١) العودة إلى الإيمان د. هنري لنك صـ٨١، ٨٢، بقلم ثروت عكاشة، نشر دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٦٤م. وقد ترجم إلى العربية في أوائل الخمسينيات وذكر مترجمه أنه طبع في أمريكا (٤٨) مرة.

QaradawiBooks.com

للتدمير وإهلاك البشـــر. ألم ترَ ما صنعه في حربيه العالميتين الكبيرتين في القرن العشـــرين، وما قتل فيها من الملايين؟ ألم تـــرَ ما فعله بأهل «هيروشيما وناجازاكي» في اليابان من ضربهما بالقنابل الذرية المهلكة للحرث والنسل، المدمرة للحياة والأحياء بغير حساب؟

فلا يتصـــور من علم هذه نشـــأته، وهذا نهجه، وهـــذه روحه، وهذه منجزاته: أن يكون سببًا في ســـعادة البشـــر، وأن يقوم بدور المنقذ لما يعانون من شـــقوة في حياتهم، بل لعله ـ كما ذكر علماؤه أنفسهم ـ من أسباب تعاستهم، وفراغهم الروحي.

عجز الفلسفة أن تسعد البشرية:

وإذا كان العلم الطبيعي والرياضي ـ على تقدمه الهائل في عصرنا ـ لم يســـتطع أن يحرر الإنسان من شـــقائه وضياعه، فهل تستطيع الفلسفة ـ بمدارسها المختلفة، واتجاهاتها المتباينة ـ أن تكون سفينة إنقاذ للبشرية المعاصرة ـ وخصوصًا في الغرب الـــذي بلغ ذروة التقدم في المجالات المادية ـ من الغرق المخوف، فـــي بحر الظلمات، الذي أبدع القرآن في وصفـــه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

لقد اختلفت العقول الفلسفية في أجلى حقائق الوجود وهي حقيقة وجود الله تعالى ووحدانيته وتفرده سبحانه بالكمال الذي يليق بذاته المقدسة.

فذهب مَن ذهب من الفلاسفة إلى إنكار الإله، وكل ما وراء الحس، وأنه ليس في الوجود إلا المادة، وما عدا ذلك فهو حديث خرافة.

QaradawiBooks.com

وبعكسهم مَن أثبت تعدد الآلهة، وأقر عبادة الإنسان أو عبادة الحيوان، أو عبادة الأوثان، أو عبادة النجوم، أو غيرها، وبرر ذلك بمستندات عقلية.

ومن الفلاسفة من أثبت للكون إلهًا، ولكنه لم يعطه صفات إيجابية، تجعله قادرًا على أن يدبر في الكون أمرًا، فهو لا يعلم إلا ذاته، ولا يعلم في الكون شيئًا.

والفلاسفة الدينيون على عكس هذا.

وكما اختلفت عقول البشر في شأن الألوهية، اختلفت في شأن الإنسان: ما هو؟ روح خالد أم مادة فانية؟ نور من السماء أم طين من الأرض؟ ملاك صاعد أم حيوان هابط؟ عقل مدبر أم شهوة مسيرة؟ أهو ثابت أم متغير؟ مسير أم مخير؟ أناني أم غيري؟ فردي أم اجتماعي؟ تجدي فيه التربية أم لا تجدي؟ مخلوق مكرم خلق لهدف أسمى، أم نبتة برية ظهرت بغير زارع، وتوشك أن تكون هشيمًا تذروه الرياح؟ ما حقيقة هذا الإنسان؟ هل خُلق من غير شيء أو خَلقه خالق؟ ولأي غاية خُلق؟ ولماذا يحيا؟ وما رسالته في حياته؟ وما مصيره بعد مماته؟!

أسئلة اختلف في الإجابة عنها عمالقة الفكر والفلسفة، في شتى الأعصار، ومختلف الأقطار، وشتى المدارس والاتجاهات، وتباينت بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، وكثيرًا ما خرج المتبحرون في الفلسفات، والمتعمقون في دراستها، أشد حيرة مما دخلوها.

صراع الفلسفات وتناقضها:

اقرأ تاريخ الفلسفة والفكر في الشرق والغرب، وأَجِل بصرك في المدارس الفلسفية هنا وهناك قديمًا وحديثًا، فماذا تجد؟

QaradawiBooks.com

تجد المثاليين من الفلاسفة يعارضهم الواقعيون.

وتجد الروحيين منهم يناقضون الماديون.

وتجد الإلهيين يصارعهم الملحدون.

وتجد دعاة الواجب في مقابلة دعاة المنفعة.

وتجد مَن ينادي بالرجوع إلى الضمير، ومَن يصرخ بأن الضمير خرافة!

وتجد القائلين بخيرية الإنسان، والقائلين بأنه ذئب مقنع!

وتجد القائلين بأنه حر مختار، والقائلين بأنه ريشة في مهب الريح.

وتجد دعاة الفلسفة الفردية في مواجهة دعاة الفلسفة الجماعية.

وكل فريق يزعم أن الصواب معه، وأن الخطأ عند غيره، وكلهم من العقل الحر ـ المجرد من الالتزام بأي دين ـ يستمدون، وعنه يصدرون! بل وجدنا في مدارس الفلسفة مَن ينكر وجود أي حقيقة كانت، فلا الدين حقيقة، ولا الدنيا حقيقة، لا الله حقيقة، ولا الإنسان حقيقة، حتى أنكروا وجودهم ذاته! إن ما يظنه الإنسان حقيقة إن هو إلا سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

وهؤلاء هم الذين يسمونهم «العنادية» المعاندين لوجود الحقائق في أي مجال.

وهناك مَن قالوا بنسبية الحقائق كلها، فلا توجد حقيقة مطلقة في أي شيء. فالحقيقة كل الحقيقة عند زيد، لا مانع في أن تكون هي الباطل كل الباطل عند عمرو، وكلاهما صواب، وهؤلاء يسمونهم «العندية».

QaradawiBooks.com

وهناك من شككوا في الحقائق كلها، ولما قيل لهم: إذن هناك حقيقة أقررتم بها، وهي الشك في ثبوت الحقيقة، قالوا: نحن نشك، ونشك في أننا نشك! وهؤلاء هم الذين يسمونهم «اللاأدرية» أي الذين يقولون في كل قضية: لا ندري حقيقتها!

ثم إن العقل البشري ـ مهما يدع الحيادية والموضوعية ـ تحده وتؤثر فيه أوضاع المكان والزمان، أي ظـروف البيئة والعصر، البيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية والثقافية، كما تحده وتحكمه طاقة الإنسـان وقدرته على المعرفة من خلال وسائل وأدوات هي محدودة أيضًا.

وفوق ذلك كله، نجد هذا العقل، مهما يحـاول التجرد من الذاتية، وكثيرًا ما يقع، بوعي أو بغير وعي ـ أسيرًا للمؤثرات والميول الشخصية والحزبيـة والطائفية، والإقليمية والعنصرية وغيرهـا، مما يوجه أحكامه وجهة متحيزة بعيدة عن الموضوعية.

لهذا كان الإنسان في حاجة إلى نور آخر أقوى من نور العقل، يهديه في مفارق الطرقات، وعند التباس الأمـور، وهو نور الوحي، ليكون له ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥][1].

حصاد الفلسفة خلال القرون:

وهنا سؤال مهم يحتاج إلى جواب: ما حصاد الفلسفة خلال القرون القديمة والواسطية والحديثة؟ ما الذي قدمته الفلسفة للبشرية من هداية للعقل، أو طمأنينة للقلب، أو سـكينة للروح؟ إنها أثارت أسئلة عويصة ولم تُجِب عليها، أو أجابت إجابات ينقض بعضها بعضها!

(١) انظر كتابنا: المرجعية العليا في الإسلام صـ٣٣١ ـ ٣٥٤، فصل: تقديم العقل على الشرع، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

إنها هدمت أكثر مما بنت، وتكلمت كثيرًا، وكان السكوت في بعض الأحيان خيرًا لها ولأهلها لو كانوا يعلمون.

وها هو أحد مؤرخي الفلسفة في عصرنا، وهو أحد أنصارها، والمعجبين بها «ول ديورانت» الأمريكي صاحب الكتاب الشهير في التاريخ «قصة الحضارة» يقول في كتابه الذي سماه «مباهج الفلسفة» مبينًا الحصيلة الأخيرة من وراء مشوارها الطويل: «ما طبيعة العالم؟ ما مادته وما صورته؟ وما مكوناته وهيكله؟ وما مواده الأولى وقوانينه؟ وما المادة في كيفها الباطن؟ وفي جوهر وجودها الغامض، ما العقل؟ أهو على الدوام متميز عن المادة وذو سلطان عليها؟ أم هو أحد مشتقات المادة وعبد لها؟ أيكون كلا العالمين: الخارجي الذي ندركه بالحس، والباطني الذي نحسه في الشعور، عرضة لقوانين ميكانيكية أو حتمية، كما قال الشاعر: «ما يكتبه الخالق في مطلع النهار نقرأه في آخر النهار»؟ أم ثمة في المادة أو العقل، أو في كليهما، عنصر من الاتفاق والتلقائية والحرية؟ هذه أسئلة يسألها قلة من الناس، ويجيب عليها جميع الناس. وهي منابع فلسفتنا الأخيرة، التي يجب أن يعتمد عليها في نهاية الأمر كل شيء آخر، في نظام متماسك من الفكر. إننا نؤثر معرفة الإجابات عن هذه الأسئلة على امتلاك سائر خيرات الأرض.

ولنسلم أنفسنا في الحال لإخفاق لا مناص منه. لا لأن هذا الباب من الفلسفة يحتاج في إتقانه إلى معرفة كاملة ومناسبة بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والميكانيكا وعلم الحياة وعلم النفس، فقط. بل لأنه ليس من المعقول أن نتوقع من الجزء أن يفهم الكل! فهذه النظرية الكلية ستبعد عن فكرنا جميع الفخاخ والمفاتن. ويكفي أن نأخذ أنفسنا بقليل

QaradawiBooks.com

من التواضع وشـــيء من الأمانة، لنتأكد من أن الحيـــاة والعالم في غاية التعقيد والدقة، بحيث يصعب على عقولنا الحبيسة إدراكها، وأكبر الظن أن أكثر نظرياتنا تبجيلًا قد يكون موضع للســـخرية والأسف عند الآلهة العليمة بكل شيء[١].

فكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهاوي جهلنا! وكلما كثر علمنا قلت معرفتنـــا، لأن كل خطوة نتقدمها تكشـــف عن غوامض جديدة، وشـــكوك جديدة «فالجزيء» يتكشـــف عن «الذرة» والذرة عن الإلكترون (الكهيرب) والإلكترون عن الكوانتوم (Quantum) «الكويمية». ويتحدى الكوانتوم سائر مقولاتنا (Categories) وقوانيننا وينطوي عليها. والتعليم تجديد في العقائد، وتقدم في الشـــك. وآلاتنا كما نرى مرتبطة بالمادة، وحواســـنا بالعقل. وفي خلال هذا الضبـــاب يجب علينا نحن «الزغب على الماء» أن نفهم البحر»!

وينتهـــي «ول ديورانت» إلى هـــذه النتيجة فيقول: «ألنـــا أن نقرر أن الفلسفة تناقض نفسها باســـتمرار مع تتابع مذهبها، وأن الفلاسفة جميعًا خاضعون لثورة جنون قتل الإخوة؟! فلا يهدأ لهم بال؛ حتى يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة؟ وكيف يجد الإنســـان المشـــغول بالحياة من فسحة الوقت ما يفســـر به هذه المتناقضات، أو ما يهدئ به هذه الحرب»[٢].

---

(١) هذا التعبير «الآلهة» وأمثاله شـــائع في الفكر الغربي، وهو من تأثير العقائد الوثنية القديمة لدى الإغريـــق والرومان، وهي من المكونات الأساســـية للعقلية الغربيـــة التي قلما تعرف التوحيد المصفى.

(٢) انظر: مباهج الفلســـفة لول ديورانت صـ٦١، ٦٢، ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦م.

QaradawiBooks.com

وهذا ما جعل بعض مؤرخي الفلسفة يقول، بعد أن عرض لعدد من الفلاسفة، هذا يثبت، وذاك ينفي، وهذا يبني، وآخر يهدم، وهذا روحي، والثاني مادي، وهذا عقلي، ومعارضه عاطفي، وواحد مثالي، ومقابله واقعي، بعد هذا قال: ما الحصيلة من هذا كله؟ إنها في الواقع ليست إلا «صفرًا»!

وكذلك كان هذا ما جعل أحد أساتذة الفلسفة المرموقين، وهو شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود ـ شيخ الأزهر بعد ذلك ـ يقول بصراحة، بعد أن رأى تعارض الفلسفة، وتضارب نتائجها، وتناقض ثمراتها: إن الفلسفة لا رأي لها، لأنها تقرر الشيء، ونقيضه، وكل من الرأيين المتنافيين يجد من رجال الفلسفة مَن يؤيده بقوة، ويقيم الأدلة على صوابه، وخطأ غيره، فكيف يخرج الإنسان من هذه التناقضات بطائل أو ثمرة؟ الواقع أنها لن تشفي له علة، ولن تنقع له غلة، بل الغالب أنه بعد أن يسبح في بحارها سبحًا طويلًا، سيخرج منها أشد حيرة، وأضيع سبيلًا.

ولعل من أبلغ العبارات المعبرة عن عجز الفلسفة، وخيبة الفلاسفة: ما ذكره فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة أبو حيان التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» حيث قال عن «إخوان الصفا» وفلسفتهم ورسائلهم: «تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجدوا، وحاموا وما ردوا، وغنوا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا ففلفلوا»[1].

ويتفق هذا مع ما انتهى إليه فيلسوف التاريخ، ومؤسس «علم الاجتماع» العلامة ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) الذي عقد في الباب السادس

(١) انظر: الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي صـ١٦٤، نشر المكتبة العصرية، بيروت.

QaradawiBooks.com

من «مقدمته» الشـــهيرة، فصـــلًا طويلًا، لبيان «أبطال الفلســـفة وفســـاد منتحلها» ولا سيما الفلسفة الميتافيزيقية أي التي تُعنى بما وراء الطبيعة، أو بـ «الإلهيات». وأوصى مَن ينظر فيها من أهل الإســـلام أن يمتلئ من «الشرعيات» أولًا، قال: ولا يكبن عليها أحد، وهو خلو من علوم الملة، فقل أن يسلم لذلك من معاطبها[1].

* * *

غير مرخصة للطباعة

(١) انظر: مقدمة ابن خلـــدون (١٣٢٧/٤)، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، نشـــر لجنة البيان العربي، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٦م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

لا إنقاذ للبشرية بغير الدين

لقد أصبح من المؤكد لدى الغربيين أن الإنسان ـ وإن بلغ من العلم ما بلغ ـ لا يستطيع أن يعيش بغير دين، بغير إيمان، بغير صلة بالله، وبوحي من السماء.

إن الدين هو سر الوجود، وجوهر الحياة، وروح العالم، وهو شيء ليس مفروضًا على الإنسان من خارجه، بل هو نابع من فطرته التي فطره الله عليها.

والإنسان إذا فقد دينه وإيمانه، فقد نفسه، وفقد جذوره، وفقد أمسه، وفقد غده، ومن لا أمس له ولا غد، قل لي بربك: كيف يعيش؟

والإنسان من غير دين وإيمان أشبه بالساري في دجى الليل بغير مصباح، والسائر في تيه الصحراء بغير دليل، وراكب البحر المحيط، وليس معه «بوصلة» ترشده ولا نجم يهديه.

أن الدين ليس أمرًا مفروضًا على الإنسان من خارجه، بل هو نابع من داخل فطرته، التي فطره الله عليها، والحياة بغير دين مصادمة للفطرة.

لهذا تنادى المخلصون من العلماء والمفكرين والقادة حتى في العالم العربي نفسه، بضرورة استعادة دور الدين في الحياة، حتى

يقوى الإنسان من ضعف، ويأمن من خوف، ويهتدي من حيرة، ويستقر من اضطراب.

وإن بعض الفلاسفة الذين لا يؤمنون بحقية الدين، لم يمكنهم إلا الاعتراف بضرورة الإيمان الديني، لضبط مسيرة الحياة، وتقوية حوافز الخير، وتقليم أظفار الشر، حتى قال بعضهم: لو لم يكن الله موجودًا، لوجب علينا أن نخلقه!

وقال آخر: لِمَ تشككون في وجود الله، ولولا الإيمان به لخانتني زوجتي، وسرقني خادمي!

ونبَّه كثير من العلماء والمفكرين الكبار على ضرورة الدين لحياة الإنسان فردًا ومجتمعًا، فالفرد في حاجة إلى الإيمان الديني ليطمئن ويسعد، والمجتمع في حاجة إليه ليترابط ويرقى[1].

يقول المؤرخ الكبير توينبي في كتابه «العادة والتغيير»: «إن جميع الأيديولوجيات تشترك في نقطة ضعف واحدة قد تودي بها جميعًا وذلك: في منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير.

وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان. فبعد أن حررته الأديان من عبودية المجتمع، وعبودية الفرد، ليتجه إلى الله وحده، عاد الإنسان إلى سجن المجتمع فتضاءل ليصبح مجرد «نملة اجتماعية» في مجتمع النمل!

لقد استطاعت الأديان أن تعلم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية، ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار. ولن تستطيع الأيديولوجيات أن

(١) من أوائل كتبنا التي شرحت هذا المعنى بالتفصيل كتابنا: الإيمان والحياة صـ ١٨١ ـ ٢٣١، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١٨، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م..

QaradawiBooks.com

تنسيه هذه الحقيقة، لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحي الذي منحته له الأديان.

فالدين هو قلب الحياة للإنسان، وهو جوهر الحياة للإنسانية، هو النور الذي يغمر القلوب، فلا غنى للإنسان عن الدين، ولن تستطيع الأيديولوجيات أن تحل محل الدين؛ لأنها تمنحنا التعصب والتباغض، بدلًا من أن تمنحنا المحبة والتعاون، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز، ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحي»[1].

عجز المسيحية عن القيام بدور المنقذ:

وإذا كان الإنسان في عصرنا في حاجة إلى «الدين» لينقذه من الغرق في بحر الظلمات، فأي دين يمكنه أن يقوم بدور المنقذ للبشرية القلقة الحائرة المعذبة؟

هل تستطيع المسيحية ـ في إطار أحد مذاهبها الثلاثة الكبرى: الكاثوليكية أو البروتستانتية أو الأرثوذكسية، أن تقوم بهذا الدور المنشود؟

وجوابًا عن ذلك السؤال نقول منصفين: إن المسيحية القائمة في العالم اليوم، وفي الغرب خاصة، لا تستطيع أن تقوم بدور المنقذ للبشرية المعاصرة، مما تعانيه من القلق والتخبط تحت سلطان الحضارة الغربية السائدة، وأن تبني الإنسان المنشود.

وذلك لعدة أسباب نجملها فيما يلي:

أولًا: إن المسيحية في صورتها المثالية لا تحمل رسالة حضارية، بل هي ـ في صلب تعاليمها ـ لا تهتم بالحياة، ولا تحتكم للعقل، ولا تدعو

(١) مقال الأيديولوجيات والدين مجلة الوعي الإسلامي، العدد (٢٧)، ترجمة أ. محمد همام الهاشمي الخبير الاجتماعي بمجلس التخطيط بالكويت.

QaradawiBooks.com

إلى العلم، ولا تحنو على فطرة الإنسان، هذا إن لم نقل بصراحة: إنها ـ كما صورها كهنتها ـ معادية للحياة، مناوئة للعقل، مجافية للعلم، قاسية على فطرة الإنسان.

والمسيحي المثالي يتجسد في «الراهب» المعتزل للحياة، المنقطع عن الدنيا، المعرض عن الطيبات، حتى عن الزواج، بل كان الرهبان في العصور الوسطى يفرون من ظل المرأة، ويستعيذون من شرها، ولو كانت هذه المرأة أم أحدهم أو أخته. وكانوا يبالغون في تعذيب أجسامهم، لترقى أرواحهم[١].

والأخلاق المسيحية أخلاق غير واقعية، لأنها فوق الطاقة المعتادة للبشر، كما في قول الإنجيل: «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، مَن ضربك على خدك الأيمن، فأَدِر له خدك الأيسر، مَن سرق قميصك فأعطه إزارك»[٢].

والمسيحيون أنفسهم ـ وخصوصًا في الغرب ـ أبعد الناس عن هذه الأخلاق، وقد جرى بينهم من الحروب الدينية والدنيوية ما لم يجرِ بين غيرهم من فئات البشر، وحسبنا الحربان العالميتان في هذا القرن، وما حصدته من ملايين المسيحيين بأيدي المسيحيين!

على أن المسيحية الأصلية كانت رسالة مؤقتة، لفترة محدودة، ولقوم معينين، ولم تكن مهيأة قط لتكون رسالة عامة أو خالدة، وقد عبر المسيح عن ذلك بأنه إنما بعث لخراف بني إسرائيل الضالة[٣]، وأنه لم

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي صـ١٥١، نشر مكتبة الإيمان، المنصورة.

(٢) إنجيل لوقا (٢٨/٦، ٢٩).

(٣) إنجيل متّى (٢٤/١٥)، (٦/١٠ ـ ٧).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

يقل كل الحق، كما بشـــر بمن يأتـــي من بعده ليبين للناس كل شـــيء، ويكسر عمود الكفر.

فكيف والمسيحية الأصلية نفســـها قد غُيِّرت وبُدِّلت، وذهب كتابها الأصلي، ودخـــل عليها من التحريـــف اللفظي والمعنـــوي، في عقائدها وشـــعائرها وأصولها وفروعها ما مســـخها وأضاع حقيقتها، وأخرجها من التوحيد إلى التثليث، ومن عبادة الله الواحد إلى عبادة المسيح أو العذراء!

والمسيح يقول: «لا يدخل الغني ملكوت السماوات حتى يدخل الجمل في سم الخياط»[١]، ويقول لمن أراد أن يتبعه: «بع مالك ثم اتبعني»[٢].

وشعار المسيحية المتوارث والمشهور: اعتقد وأنت أعمى! أي اعزل إيمانك عن عقلك.

والإيمان المسيحي بطبيعته وتاريخه شـــيء خارج عن دائرة العقل، حتى قال الفيلســـوف الشـــهير «أوغســـتين» يومًا في تعليل إيمانه بغير المعقول: أومن بهذا، لأنه محال[٣]!

معنى هذا أن المســـيحي الحق لا بد أن يختار بين أمرين، فإما دين بلا علم، وإما علم بلا دين! فالدين والعلم في نظره لا يجتمعان، وهما ككفتي الميزان، لا تثقل إحداهما إلا بما تخف الأخرى.

ثانيًا: إن المسيحية ينوء كاهلها بتاريخ شديد الظلمة، حالك السواد، ملطخ بدماء العلماء والمفكريـــن الأحرار، تاريخ تقشـــعر لمجرد ذكره

(١) إنجيل متّى (٢٣/١٩).

(٢) إنجيل مرقص (٢١/١٠).

(٣) انظر: الإســـلام والنصرانية مع العلم والمدنية للأستاذ الإمام محمد عبده صـ٣٤، والأصول التي تقوم عليها المسيحية، ومنها: الإيمان بغير المعقول، نشر دار الحداثة، ط٣، ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

الأبدان، وتشـيب لهوله الولدان، تاريخ وقفت فيه الكنيسة مع الجمود ضد الفكر، ومع الخرافة ضد العلم، ومع الاستبداد ضد الحرية، ومع الظلام ضد النور، ومع الملوك ضد الشعوب، وصنعت من المجازر البشرية ـ وخاصة مع النخبة والصفوة من العلماء والمفكرين ـ ما لا ينساه التاريخ. وهل ينسى التاريخ يومًا «محاكم التفتيش» وما اقترفته من موبقات في حق العلم وأهله، ولا سيما المبتكرين والمكتشفين؟

وبهذا لم يعد وجه المسيحية مقبولًا بحال للقيام بالدور المنتظر، حتى لو افترضنا قدرتها على ذلك، وما هي بقادرة.

ثالثًا: إن المسيحية لا تنفصل عن «الإكليروس» رجال الكهنوت، وسيادة المسيحية تعني سيادة هؤلاء الذين يتحكمون في ضمائر الناس، ويزعمون أنهم وحدهم الممسكون بمفاتيح أبواب الملكوت، وأنهم حلقة الوصل بين السماء والأرض، ومحتكرو الوساطة بين الله وعباده، والبشرية التي دفعت ما دفعت للتحرر من استبداد الملوك ورجال الدنيا ليست مستعدة أن تقع أسيرة لاستبداد رجال الدين مرة أخرى.

رابعًا: إن كثيرًا من رجال الدين في المسيحية، قد انهزموا أمام التيار المادي والإباحي في الحضارة الغربية، فانساقوا وراه أهوائها وانحرافاتها، وأباحوا للناس أن ينهلوا منها ويعلوا، ويشربوا من خمرها حتى يسكروا ويعربدوا. فلا غرو أن وجدنا من القسس في كنائس عدة في أوروبا وأمريكا؛ من يزوج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، خلافًا لفطرة الله التي فطر الناس عليها، والتي دعت الديانات السماوية جميعها إلى رعايتها.

ورأينا بعض هؤلاء القسيسين يستخدم بعض الأغاني المثيرة في كنيسته لجذب الشباب إليها، والغاية تبرر الوسيلة.

QaradawiBooks.com

خامسًا: إن جمهرة المسيحيين الغربيين اليوم في أوروبا وأمريكا ـ كما تدل الإحصائيات، وكما تظهر المشاهدات ـ ليسوا في الواقع مسيحيين إلا بالاسم أو بالميراث، أو بالجغرافيا، أي بالعيش في بلاد المسيحيين.

إنهم لا يعتنقون المسيحية لا عقيدة ولا سلوكًا، وكثيرًا ما يسأل الواحد منهم عن عقيدته، فيجيب: لم أفكر في هذا الأمر، لأنه لا يعنيني.

إنهم لا يشغلون أنفسهم بالتفكير في الألوهية ولا في النبوة ولا في الآخرة، ولا في الجنة أو النار، ولا يعرفون حلالًا من حرام. إن أكبر همهم ومبلغ علمهم هو هذه الدنيا ومنافعها ولذاتها، وكأنهم يقولون ما قال الأولون: نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما نحن بمبعوثين.

وقد ذكرت بعض الإحصاءات: أن نسبة الذين يرتادون الكنائس في أيام الآحاد لا تزيد عن «٥٪». هذا مع أن كثيرًا ممن يزور الكنيسة يوم الأحد، ليس بدافع ديني خالص، بل ربما كان لتغيير رتابة الحياة، أو اللقاء بمن يحب أو بمن تحب. أو التعرف على وجوه جديدة، أو غير ذلك.

ولا غرو أن وجدنا كثيرًا من المسيحيين في أوروبا وأمريكا يبيعون كنائسهم، حيث لم تعد تمس الحاجة إليها، وربما اشتراه منهم المسلمون، وحولوها إلى مساجد ومراكز إسلامية.

سادسًا: إن الحضارة الغربية يزعم لها الكثيرون أنها حضارة مسيحية! ويحاولون إلصاقها بالمسيح، وإن كان المسيح منها براء، فهي ـ كما قلت مرة ـ حضارة المسيح الدجال، لا حضارة المسيح ابن مريم، لأن الدجال أعور، وهي حضارة عوراء، تنظر إلى الحياة والكون والإنسان بعين واحدة، هي العين المادية. ترى الإنسان بغير روح، والكون بغير إله، والدنيا بغير آخرة.

QaradawiBooks.com

ولهذا كله يستبعد المفكرون الغربيون أنفسهم أن تكون المسيحية هي مصدر الخلاص، وسبيل النجاة.

فدور المسيحية قد انتهى إلى غير رجعة، والمسيح عندهم «قد مات»، وهو ما عبر عنه «نيتشه» وغيره بأن «الإله قد مات»!

وعبارة «موت الإله» شديدة الواقع على الحس الإسلامي، والعقل الإسلامي، لأن الإله عندنا هو رب الناس، ملك الناس، إله الناس، الذي خلقهم وسواهم، وأحياهم ثم يميتهم ثم يحييهم، ومثل هذا الإله المحيي المميت لا يتصور أن يموت، بل هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، بله أن يعتريه موت.

أما إله الغرب، أو إله المسيحيين، فهو ـ في اعتقادهم ـ مجرد بشر تجسد فيه، أو حل فيه روح الإله، وهم يعتقدون أنه صلب من قبل، فلا غرابة أن يموت من بعد!

يقول البروفسور «رينيه دوبو» في نقده للحضارة الغربية، تحت عنوان فصل جديد: «التخلص من أسطورة النمو والتنمية»: «إذا راجعنا التاريخ ربما يظهر موضوع «البحث عن معنى» عملًا لا فائدة منه. ففي كل مرة تتعرض البشرية لمثالية تعطيها معنى لحياتها تتجزأ هذه المثالية، وتختفي ولقد ظهر في الماضي كثير من العقائد الدينية والفلسفية والاجتماعية أنارت للبشر طريقهم لمدة ما، وضاعت من بعد ذلك في مستنقع من شكوك فلسفية وجدل ضيق عميق.

بدت المسيحية في القرون الوسطى كقوة موحدة عندما أعطت شعوب أوروبا بعض الآمال، والمطامح المشتركة، والسلوك الاجتماعي

QaradawiBooks.com

المستوحى من محبة الله وخوفه، ولقد حركت أفكار المسيحية القدرات البشرية في أعمال جماعية مدهشة، كبناء الأديرة، والكاتدرائيات ذات الفن القوطي والروماني.

ولكن بعد ذلك انشغل المسيحيون باطراد في مجالات لاهوتية مكررة، وتحولت المسيحية من عقيدة روحانية من المحبة إلى اعتقاد جامد محافظ خال من أي إلهام، والآن كثيرًا ما نراها ـ أي المسيحية ـ تتفتت لتصبح فئات متعددة تتبنى أخلاقًا اجتماعية مبهمة.

فاللاهوتيون مشغولون بمناقشات فلسفية زائفة لمحاولة التوفيق بين المسيحية والرأي الذي لا معنى له، عن «موت الإله»![1]».

ليت «دوبو» عرف الإسلام بحق، إذن لوجد فيه ما افتقده في المسيحية[2]!

اليهودية أشد عجزًا:

وإذا كانت «المسيحية» عاجزة عن القيام بدور المنقذ، فإن «اليهودية» أشد عجزًا!

واليهودية نفسها لا تزعم أن لديها هداية تقدمها للبشر، فهي ديانة يغلب عليها الطابع العنصري، وبنو إسرائيل ـ وحدهم دون الناس ـ هم شعب الله المختار! ولغلبة العنصرية على اليهودية نراها في الغالب منغلقة على نفسها، ليس لها دعوة للناس تنشرها وتبلغها للعالم.

(١) إنسانية الإنسان صـ ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) انظر كتابنا: الإسلام حضارة الغد صـ١٤٤ ـ ١٤٧ بتصرف وإضافة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

و«الله» في ديـــن اليهود ليـــس رب العالمين، ولكنه رب إســـرائيل، والآخرة عند اليهود ليســـت هي ملكوت السماء عند النصارى، ولا جنة الخلد عند المسلمين، إنما هي ملك إسرائيل.

و«العهد القديم» كتاب اليهـــود المقدس الذي يضم أســـفار التوراة وملحقاتها يدور جله حول تاريخ إسرائيل، وأحلام إسرائيل.

ولا غرو أن قال الكاتب القبطي المصري د. نظمي لوقا[1]: اليهودية ديانة شعب، أي ليست ديانة عالمية.

التوحيد الذي دعا إليه موسى عليه السلام، ضاع في هذا الكتاب الذي شوه صـــورة الألوهية، وأضفى علـــى الإله من نقائص البشـــر، مـــن الجهل والخوف والحســـد، والضعف، ما يلاحظه كل قارئ للتوراة، وخصوصًا سفر التكوين.

والأنبياء الذين جعلهم الله هداة للبشـــر ومعلمين، لُوثت ســـيرتهم، وأُلصقت بهم التهم، في هذا الكتاب، فلم يعودوا ليصلحوا أسوة للناس، حتى نادى بعض المربين بمنع قراءة هذا الكتاب للأطفال والمراهقين، لما فيه من قصص فاضحة منافية للأخلاق.

والشريعة فيه تحل لبني إســـرائيل ما تحرمه على غيرهـــم، فالربـــا حرام إذا تعامـــل اليهودي مـــع مثله، أما مـــع غيـــره من الناس فهو حلال زلال.

أمـــا تعاليم «التلمود» فتجعـــل من اليهود «عصابة» أشـــبه بعصابات «المافيا» في عصرنا تســـتحل دماء البشـــر، وأموالهم وحرماتهم، باسم

(١) في كتابه: محمد: الرسالة والرسول صـ٥٣، نشر دار الكتاب العربي، مصر، ط٢، ١٩٥٩م.

QaradawiBooks.com

الدين، فكل مَن عداهم من الأمم يجب أن يكونوا عبيدًا لهم، وأن يكون لهم السيادة على العالم وكل من دونهم أحط من البهائم[١].

«اليهودية» ليست دعوة عالمية، ولا تنشد هداية العالم، إنما تريد شيئًا واحدًا، هو السيطرة على العالم.

على أن اليهود لو كانوا يملكون رسالة لهداية البشر، لكانوا أبعد الناس عن الصلاحية لحملها، فهم ـ بأنانيتهم وعزلتهم، وحقدهم وطمعهم وشرههم وحرصهم على استغلال المجتمعات التي يعيشون فيها ـ لا يصلحون لحمل رسالة عالمية.

وهم ـ بما نشر عنهم في بروتوكولات حكماء صهيون، وما ظهر على أيديهم من مظالم ومآثم ومجازر في فلسطين ولبنان ـ أعداء البشرية لا منقذوها!

وهم ـ بتاريخهم الدموي مع أنبياء الله ورسله: زكريا ويحيى والمسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام ـ لا يصلحون لحمل رسالة للإنسانية.

وهم ـ بتاريخهم في إيقاد الفتن، وتمزيق الجماعات، وبث الأفكار الهدامة، ونشر الفلسفات والمذاهب الانحلالية ـ لا يصلحون للإنقاذ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فإن فاقد الشيء لا يعطيه! وقد ضل من كانت العميان تهديه[٢]!

* * *

(١) راجع: همجية التعاليم الصهيونية لبولس حنا مسعد، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.

(٢) انظر كتابنا: الإسلام حضارة الغد صـ ١٤٧ ـ ١٤٩.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

لم يبقَ غير الإسلام منقذًا

إذا قلنا: إن العلم والفلسفة عاجزان عن القيام بمهمة الإنقاذ للبشرية اليوم مما تعانيه، وأن الدين وحده هو المنقذ، ولا شيء غيره، وبينا أن المسيحية ـ باعتبارها دينًا ـ عاجزة عن القيام بهذا الدور، وأن اليهودية أشد منها عجزًا.

فلم يبقَ غير الإسلام دينًا يمكنه أن يقوم بهذا الدور الخطير، في هذا الزمن البائس، الذي تتلمس فيه البشرية الخلاص، وتبحث عن طوق للنجاة.

ترى هل يستطيع الإسلام المعاصر أن يقوم بهذه المهمة بجدارة واقتدار؟ وأي الاتجاهات الفكرية التي نشهدها في الساحة اليوم، ونرى لها دعاتها وأنصارها، هو المرشح للقيام بهذا الدور المنشود؟

الاتجاهات السبعة السائدة في موقفها من الإسلام:

سنعرض هنا بوضوح وأمانة للاتجاهات الفكرية الأساسية التي تتحدث عن الإسلام وتتخذ منه موقفًا، بالإيجاب أو بالسلب، بالقبول والولاءِ، أو بالرفض والعداء.

ومن درس الاتجاهات الفكرية في الساحة، وموقفها من الإسلام، وجدها سبعة، ستة منها نرفضها، لأنها لا تمثل الإسلام الحق في رأينا،

QaradawiBooks.com

وواحد منها فقط، هو الذي نؤمن به، وندعو إليه. وسنجتهد أن نعرضها هنا بإيجاز ما استطعنا، محاولين تحديد أهم ملامحها ومعالمها، مختارين لها عناوين معبرة، وهي من عندنا، ولم يسمها بها أصحابها طبعًا.

١ ـ الاتجاه الاجتراري:

وهو الذي يعيش على الماضي وهو يجتره، ويعيد مضغه من جديد ولا يضيف إليه شيئًا، هذا مع أنه في واقع الأمر قد مضغ وهضم وامتص من قبل. فالاجترار المعروف عند الأنعام له وظيفة مهمة، حتى يعاد مضغه في تؤدة وأناة. أما الاجترار الفكري لما هو مهضوم بالفعل من قبل، فهو عمل معيب، غير ذي وظيفة.

الاجترار الحيواني إذن له فائدته ونفعه، أما الاجترار الإنساني فلا فائدة له، بل هو ضار بالأمة، لأنه يضيع طاقتها في غير طائل.

إنما المفيد حقًّا هو استخدام هذا الماضي أو التراث لإنشاء شيء جديد، فيكون بمثابة «المادة الخام» التي تضاف إليها بعض المواد المعينة، لتصنيع آليات جديدة، لخدمة الأهداف الثابتة، والأصول الخالدة، التي يقوم عليها كيان الأمة.

يمثل هذا الاتجاه بعض الدعاة الذين يفكرون بعقول الأموات من الماضين، وينظرون إلى إشكالات الحياة المعاصرة بعيونهم. الجامعات الدينية، التي تعيش على الماضي وحده، ولا تهتم بما يمور به العصر من تيارات، ولا ما يعنيه الواقع من مشكلات، فهم قدماء في أفكارهم، قدماء في لغتهم، قدماء في توجههم. يعتقدون أن في الكتب القديمة حلًّا لكل معضلة، وإجابة عن كل سؤال، ولا ننازع في أن أئمتنا وفقهاءنا

QaradawiBooks.com

الأقدمين تركـــوا للأمة فقهًـــا ثريًّا، وتركـــة غنية بالأقـــوال والتعليلات والتخريجـــات والقواعد والصور، ولكنهم اجتهـــدوا لزمانهم لا لزماننا، ولبيئتهم لا لبيئتنا، ولمشكلاتهم لا لمشكلاتنا. فعلينا أن نجتهد لزماننا وبيئتنا كما اجتهدوا. وأن نرفض تلـــك المقولة التي تبناها أصحاب هذه الاتجاهات وهي: ما ترك الأول للآخر شيئًا. فالواقع أن الأول ترك للآخر أشـــياء كثيرة، رأيناها ماثلة للعيان في مجال العلوم الطبيعية والرياضية. فلماذا لا يكون ذلك في العلوم الشرعية؟ لا سيما أن الحياة تغيرت تغيرًا هائلًا اقتضـــى أن تتغير الفتوى بتغيره، كما قرر الراســـخون من العلماء. وهذا ليس في الفقه وحده، بل في العقيدة وعلم الكلام أيضًا. فما أحوج الناس إلى علم كلام جديد، يخاطب الإنسان المعاصر بلسانه.

٢ ـ الاتجاه الانتحاري:

وهو الاتجـــاه الذي يريد من الأمة أن تنســـلخ مـــن ذاتيتها، وتتنكر لعقيدتها وشـــريعتها ورســـالتها، وتذوب في الأمم الأخرى، الأشد قوة، والأكثر تقدمًا، والأقوى حضـــارة في الإبداع المـــادي، بناء على نظرية تقول: إن الحضارة لا تتجزأ، وإن أخذ جزء من حضارة ـ كالجزء العلمي أو التكنولوجي في الحضارة الغربية المعاصـــرة ـ لا يغني، ما لم تأخذ الحضارة كلها بجذورها الفلسفية، وقيمتها الأخلاقية، ومفاهيمها الفكرية، ومنهاجها التربوية، وتوجهاتها التشريعية. فما لم تؤخذ الحضارة بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، فلن يجتني من ورائها ثمرة، ولن تستطيع منافسة أهلها في مضمار التقدم[1].

(١) ناقشنا هذه الفكرة بتفصيل في كتابنا: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، تحت عنوان: رأي توينبي في اقتباس الحضارات صـ١٢٦ ـ ١٣٧، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٢٦ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

وإنما سمينا هذا الاتجاه «الانتحاري» لأنه إعدام للأمة وإلغاء لشخصيتها وتميزها، وهذا هو الانتحار بعينه، فإن بقاء الأمة ـ بوصفها أمة ـ إنما يكون ببقاء شخصيتها وخصائصها الذاتية، فإذا ذابت في غيرها، وفنيت فيه، كما يذوب الملح في الماء، فلم يعد لها وجود متميز، فحياتها ـ كأمة ـ وموتها سواء. ولا سيما إذا كانت هذه الأمة ذات رسالة عالمية دينية وأخلاقية وحضارية. فذلك أكبر جناية عليها، حيث تنسى نفسها، وتنكر ذاتها.

وأخذ جزء من حضارة لا يستلزم أخذ الحضارة كلها، وقد تكرر هذا قديمًا وحديثًا. أخذ الغرب المنهج العلمي التجريبي من الحضارة الإسلامية دون أن يأخذ قيمها الروحية والأخلاقية والتشريعية. وأخذت اليابان في عصرنا هذا المنهج من الغرب، ولم تأخذ عقائد الغرب ولا قيمه ولا تقاليده، واستفادت اليابان بما أخذت من الغرب، كما استفاد الغرب قديمًا بما أخذ من حضارة الإسلام.

هذا الاتجاه الخطير يمثله دعاة «التغريب» بفصائلهم المختلفة، وفلسفاتهم المتباينة: من اليمين الليبرالي، إلى اليسار الماركسي، فكلهم شركاء في رفض «مرجعية الإسلام» للأمة، متفقون ـ رغم اختلاف وجهاتهم ـ على إخراجها من هويتها، وسلخها من جلدها، لتتبع أممًا أخرى، في فكرها وقيمها وسلوكها، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع!

فكل هؤلاء بمدارسهم المتعددة لا يؤمنون بأصالة الأمة، وقيمة ما لديها من رسالة وثقافة وحضارة، وأنها لا يمكن أن تعيش ـ بله أن تتقدم ـ إلا بالاستيراد من غيرها.

ولو قالوا باستيراد الأساليب والكيفيات والآليات، لوافقناهم تمامًا، ولكنهم يريدون استيراد الأصول والفلسفات والقيم، لتبقى الأمة بلا

QaradawiBooks.com

أساس ولا جذور. ولهؤلاء أساليب شـــتى، وحيل متنوعة، في الوصول إلى هذا الهدف.

بعضهم صرحاء في رفضهم لمرجعية الإسلام، بلا مداهنة ولا مواربة ولا مجاملة، ولا تغليف بأي غلاف. مثل: سلامة موسى، وطه حسين في وقت من الأوقات.

وبعضهم يتخذ أساليب ملتوية، كالقول بتاريخية النص القرآني أو النبوي، أو بدعوى قراءته قراءة جديدة، لا تعتمد على الأصول العلمية الموروثة، والتي أجمعت عليهـــا الأمة في علم أصول الفقه، أو أصول التفســـير، أو أصول الحديث، بـــل يقرؤونه قراءة معاصـــرة تلغي كل القـــراءات القديمـــة، ولا تســـتلهم إلا ذاتهـــا وهواهـــا، فتعرض عن «المحكمات»، وتتمســـك «بالمتشـــابهات»، وتؤول «القطعيات». ولا تؤمن بهذا المبـــدأ العظيـــم «أن الأمة في مجموعهـــا معصومة»، ولا تجتمع على ضلالة[1].

وبهذا يصبح لكل شخص أن «يؤلف» دينًا على رأيه ومزاجه وهواه، ولا يكون ثمة دين يجتمع الناس عليه، ويدينون به، إذ ليس هناك أصول تضبط الأفهام، وترد الشاردين إلى الصواب.

يسير في هذا الدرب كثيرون من المغرورين المتفيهقين الذين عبَّدوا أنفســـهم للغرب، وحرروها من الالتزام بالإسلام، أمثال: محمد أركون،

(١) انظر كتابنا: المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة صـ١٥٥ ـ ٣٥٩، باب: معالم وضوابط في فهم الأصلين: الكتاب والسنة، وباب: مزالق ومحاذير في فهم الأصلين. وكتابنا: كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ ٢٦٥ ـ ٣٦٥، فصل: مزالق ومحاذير في تفسير القرآن، نشر دار الشروق، القاهرة، ط٧، ٢٠٠٩م.

QaradawiBooks.com

ومحمد شحرور، ونصر أبو زيد، وسعيد العشماوي، وغيرهم من عبيد الفكر الغربي.

٣ ـ الاتجاه الاعتذاري:

وهو الاتجاه الذي يقدم الإسلام وكأنه في قفص اتهام، أمام مدَّعٍ يطالبه بأن تكون فلسفته كلها، وقيمه كلها، ومفاهيمه كلها، وتشريعاته كلها، متماشية مع الغرب، فما خالف الغرب منها فلا بد له من عذر، ولا مفر من البحث له عن مسوغ أو (مبرر).

ومن هنا وقف الكثيرون من قضية الحجاب في مجال المرأة، والطلاق وتعدد الزوجات في مجال الأسرة، والربا في مجال الاقتصاد، والجهاد في مجال العلاقات الدولية، وغيرها من القضايا الإسلامية الأصيلة موقف المحامي المدافع عن متهم يُطَالَب له بأقصى العقوبة!

وكثيرًا ما ينزل هؤلاء عن هذا الموقف إلى موقف تبريري أضعف، يحاولون فيه تسويغ الأوضاع التي صنعها لنا الغرب، وفرضها علينا أيام سطوته الاستعمارية، بإعطائها «سندًا شرعيًّا»، وتغطيتها بفتاوى إسلامية، أي إنهم ـ كما قلت مرة ـ يلبسون الخواجة الأوروبي أو الأمريكي عمامة عربية إسلامية! وفي هذا من الضحك على النفس، والتضليل للغير، ما فيه.

مدرسة الاعتذار والتبرير كانت ظاهرة في النصف الأول من القرن العشرين، ولا يزال لها صوت إلى اليوم، يتمثل في أولئك الذين يريدون أن يحللوا «الربا» وفوائد البنوك؛ بمماحكات شرعية، وأن يحللوا «الخمر» أو يسقطوا «الحدود» بمجادلات بيزنطية ومثلهم الذين يريدون أن يخلعوا عن المسلمة حجابها بمثل هذا المراء العقيم.

QaradawiBooks.com

٤ ـ الاتجاه الافتخاري:

وفي مقابل الاتجاه الاعتـذاري يوجد هذا الاتجـاه الافتخاري، الذي يتحدث عن الإسـلام وتاريخه وحضارته بالأمس، وعن صحوته وحركاته اليوم، حديـث «المختال الفخـور» الذي لا يـرى إلا الأمجاد يسـردها، والمناقب يعددها، مغفـلًا العيوب والآفات والعاهـات الدينية والأخلاقية والفكرية والحضارية التي أصابتنا بالأمس، حتى دمرت بنيان حضارتنا، ولا تزال تصيبنا اليوم بصورة أخرى، وفي مجالات أخرى، وعلى مستوى آخر. حتى غدونا في مؤخرة القافلة البشرية، نُنسب إلى العالم الثالث، أو الرابع لو كان هناك، ونحسب على بلاد التخلُّف التي جاملوها فسمَّوها «النامية»!

لا أريد أن نشعر بالدونية ولا أن نحقر أنفسنا، فنحن نملك المؤهلات والطاقات التي ترشحنا لأن نسود ونقود، لو أننا استخدمناها، كما ينبغي، وكما أمرنا ديننا، وانتقلنا من القول إلى العمل، ومن الانفعال إلى الفعل، ومن الغوغائية إلى العملية، ومن التقاليـد إلى التجديد، ومن الاغتراب ـ سـواء كان مكانيًا «أي عن أمتنـا» أم زمانيًا «أي عـن عصرنا» ـ إلى الأصالة والإبداع.

عندنا القـوة المادية، والقـوة البشـرية، والقوة التاريخيـة، والقوة الروحية، التي تعدنا لنكون شـيئًا مذكورًا، لو حددنا الوجهة، وأخلصنا النية، وأعددنا العدة، ووحدنا الصف، وبدأنا السير عازمين متوكلين على الله، مستفيدين من أخطاء الماضي، وزلات الحاضر، وتجارب الآخرين، ولكن ينبغي أن نقوِّم أنفسنا تقويمًا عادلًا.

يمثل هذا الاتجاه بعض الدعاة العاطفيين للإسلام، ممن ينسبون إلى بعض الجماعات الدينية والإسلامية، ممن لم يتعمقوا في دراسة الإسلام

QaradawiBooks.com

وثقافته وحضارته وتاريخه، ولم يحيطوا علمًا بما عند الآخرين، واعتبروا كل ما عندنا وردًا لا شوك فيه، وما عند الآخرين شوكًا لا ورد فيه، فظلت نظرتهم قاصرة، وإن كانت سريرتهم طاهرة.

٥ ـ الاتجاه الاختصاري:

وهو الذي يريد أن يختصر الإسلام في العقيدة والعبادة، وإن كانت صورة بلا حقيقة، وشبحًا بلا روح، ويحذف من الإسلام كل ما يجعل منه رسالة لإصلاح المجتمع، وبناء الأمة، وهداية العالم، وتجديد الحياة.

وإذا كان اتجاه بعض المسلمين في الأزمنة الماضية «الزيادة في الإسلام» بالابتداع فيه، وهو مردود، فإن كل بدعة ضلالة، فإن اتجاه هؤلاء هو: «الانتقاص من الإسلام»، بإخراج بعض ما هو من صلبه منه، وقد امتن الله تعالى علينا بإكمال هذا الدين، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. والكامل لا يقبل الزيادة عليه، ولا النقص منه.

هذا الاتجاه يريد الإسلام: عقيدة بلا شريعة، ودعوة بلا دولة، وسلامًا بلا جهاد، وحقًّا بلا قوة، وعبادة بلا معاملة، وزواجًا بلا طلاق، ودينًا بلا دنيا.

إن أصحاب هذا الاتجاه يريدون «تحريف الإسلام» وتحويله إلى ديانة جديدة، تحمل «مضمون النصرانية» و«عنوان الإسلام».

فالنصرانية ليس فيها تشريع، ولا عقوبات، ولا معاملات ولا طلاق، ولا جهاد، ولا دولة أو حكومة، بل يقول إنجيلها: «دع ما لقيصر لقيصر،

QaradawiBooks.com

وما لله لله»[١]. فقلبت قسمة الحياة، وقسمة الإنسان بين الله تعالى وبين قيصر، فالدين لله أي للكنيسة، أو للسلطة الروحية، والدنيا وشؤون الحياة لقيصر، أي للدولة، أو للسلطة الزمنية.

أما الإسلام فهو يقرر أن كل ما في الوجود لله، فله ما في السماوات وما في الأرض، ومَن في السماوات ومَن في الأرض، مِلكًا ومُلكًا، وقيصر وما لقيصر كله لله وحده.

هذا هو اتجاه دعاة «العلمانية» الذين لا يريدون أن يعلنوها صريحة بأنهم يرفضون الإسلام، كما نزل به القرآن، وكما دعا إليه محمد ﷺ، وكما فهمه الصحابة وتابعوهم بإحسان، وعلماء الأمة في سائر القرون، بل يريدون أن يحرفوا الإسلام باسم الإسلام، والإسلام من دعواهم براء.

فهو رسالة شاملة: عقيدة وشريعة، وعبادة ومعاملة، ودعوة ودولة، وحق وقوة، ودين ودنيا، وجهاد واجتهاد، وثقافة وحضارة.

إنه رسالة تصحب الإنسان في رحلة حياته كلِّها من المهد إلى اللحد، بل من قبل أن يولد، ومن بعد أن يموت. الإنسان جنينًا ورضيعًا وفطيمًا، وصبيًا وشابًا، وكهلًا وشيخًا، الإنسان رجلًا، والإنسان امرأة، الإنسان وحده، والإنسان في أسرة ومجتمع، الإنسان محكومًا، والإنسان حاكمًا، الإنسان غنيًّا، والإنسان فقيرًا، الإنسان في بادية، والإنسان في حاضرة.

وهو كذلك رسالة تصحب الإنسان في مجالات حياته كلها، تصحبه بالتشريع حينًا، وبالتوجيه أحيانًا، ترسم له الطريق، وتحدد له المعالم، وتحذره من المزالق. في البيت، أو في المسجد، أو في الطريق، أو في

(١) إنجيل متّى (٢١/٢٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المدرسة، أو المزرعة، أو المصنع، أو المتجر، أو المكتب، أو المحكمة، أو الديوان، أو في أي جانب من جوانب الحياة[١].

فقد أنزل الله كتابه تبيانًا لكل شيء، من رب كل شيء كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

٦ ـ الاتجاه الاشتجاري:

وهو الاتجاه الذي يقدم الإسلام «مشتجرًا» مع سائر الناس، ومعتركًا مع كل من يخالفه، ليس إسلام الرفق والتسامح، وليس إسلام الحوار والإقناع، فهو ينصب معركة مع غير المسلمين، بل مع المسلمين غير الملتزمين، بل مع الملتزمين المخالفين لرأيه، مع الحكام، مع الفن كل الفن، مع المرأة التي تلبس الخمار، لِمَ لَمْ تلبس النقاب؟ مع الذين لا يرون رأيه في بعض مسائل العقيدة أو لا يقولون بقوله في بعض مسائل الفقه.

أصحاب هذا الاتجاه دائمًا «في حالة حرب» مع غيرهم، شاهرون سيوفهم على مَن ليسوا أعداء لهم في الحقيقة، فهم يقاتلون غير عدو، ويجاهدون في غير ميدان.

همهم الأكبر إثارة الخلاف، والجدل في الجزئيات، وشغل الناس بالجزئيات عن الكليات وبالفروع عن الأصول، وبالشكل عن الجوهر، وبالمختلف فيه عن المتفق عليه.

(١) انظر كتابنا: الخصائص العامة للإسلام صـ ١٠٥ ـ ١٢٤، خصيصة: الشمول، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م، وشمول الإسلام، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ومؤسسة الرسالة، بيروت.

QaradawiBooks.com

صورة الإسلام الذي يقدمونه للناس، لا تصلح إلا لبيئتهم المحدودة، لا تصلح رسالة عامة خالدة، للشرق وللغرب، للقرن الخامس عشر الهجري. أو القرن الحادي عشر الميلادي.

إنه الإسلام المقطب الوجه، العبوس القمطرير، الذي لا يعرف غير العنف في الدعوة، والخشونة في المجادلة، والغلظة في التعامل، والفظاظة في الأسلوب.

إنه الإسلام الجامد كالصخر، الذي لا يعرف تعدد الآراء، ولا يعترف بتنوع الاجتهادات، ولا يقر إلا الرأي الواحد، والوجه الواحد ولا يسمع للرأي الآخر، ولا للوجهة الأخرى، ولا يرى أحدهم أن رأيه صواب يحتمل الخطأ، وأن رأي غيره خطأ يحتمل الصواب.

إنه الإسلام الذي لا يكاد يرى في الإسلام إلا التشريع، ولا يكاد يرى في التشريع إلا الحدود والعقوبات.

إنه الإسلام الذي لا يعرف التسامح مع المخالفين في الدين، ولا يقبل الحوار مع المغايرين في الفكر، ولا يأذن بوجود للمعارضين في السياسة.

إنه الإسلام الذي ينظر بريبة إلى المرأة، فهو يدعو إلى حبسها في البيت، وحرمانها من العمل، ومن المشاركة في الدعوة والحياة الاجتماعية، ومنعها من التصويت، بله الترشح للمناصب.

إنه الإسلام الذي لا يعنيه العدالة في توزيع الثروة، ولا توكيد قاعدة الشورى في السياسة، ولا إقرار الحرية للشعب، ولا مساءلة اللصوص الكبار عما اقترفوه، لكنه يشغل الناس بالجدال في فرعيات

QaradawiBooks.com

فقهية، وجزيئات خلافية، في العبادات أو المعاملات، لا يمكن أن ينتهي فيها الخلاف.

إنه الإسلام الذي يتوسع في «منطقة التحريم» حتى يكاد يجعل الحياة مجموعة من المحرمات، فأقرب كلمة إلى ألسنة دعاته وأقلام كتابه: كلمة «حرام».

إن الإسلام بهذه الصورة القاتمة السوداء ـ الذي يقدمه بها نفر من أبنائه، المخلصين غالبًا في نياتهم، القاصرين في أفهامهم ـ لن يمكنه القيام بدور «المنقذ» أو «الوارث» للحضارة الغاربة أو التي توشك على الغروب.

٧ ـ الاتجاه الحضاري:

وهذا ما ينادي به اتجاه «الوسطية الإيجابية» التي تنظر إلى الإسلام باعتباره «رسالة حضارية» متميزة، رسالة ربانية الغاية، إنسانية المحتوى، عالمية الوجهة، أخلاقية المنهج، إيجابية المسلك.

وسنتحدث عن هذه الرسالة ـ بعد قليل ـ بما يبين ملامحها، ويلقي شعاعًا على مقوماتها وخصائصها.

يعمل هذا الاتجاه جاهدًا أن يجند الأمة لجهاد كبير، يعيد إليها ذاتها، أو يعيدها إلى ذاتها، فتستفيد من أمسها، ملتفتة إلى يومها، متطلعة إلى غدها. جهاد همه البناء لا الهدم، الجمع لا التفريق، والعمل لا الجدل، والعطاء لا الثناء، والابتكار لا الاجترار ولا الافتخار. وشعاره: الرفق لا العنف، والتسامح لا التعصب، والتعاون لا التشاحن.

يغالي هذا الاتجاه، أو هذا التيار بقيمة ما لدينا من رسالة، وما أقمنا من حضارة، وما عندنا من إمكانات، ولكنه يعترف بأخطائنا القاتلة

QaradawiBooks.com

بالأمس، وانزلاقاتنا الماثلة اليوم، ولكنه لا يجعل من الحبة قبة، ولا يضخم «سلبياتنا» حتى يوئسنا من أنفسنا، فهو ينكر «التهويل» كما ينكر «التهوين» للواقع، مجتهدًا أن يعطي لكل أمر ما يستحقه.

هذا الاتجاه مثَّله دعاة «الجامعة الإسلامية» من قبل: الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، بأقدار متفاوتة، ومثله بعدهم دعاة الإصلاح والتجديد الإسلامي، أمثال: حسن البنا مؤسس كبرى الحركات الإسلامية، «الإخوان المسلمون»، والتي أصبح لها أتباع في أكثر من سبعين دولة في العالم اليوم، ومن رجالها وخريجي مدرستها: مصطفى السباعي، وعبد القادر عودة، ومحمد الغزالي، وسيد قطب، وعبد الحليم أبو شقة، وغيرهم رحمهم الله، وكثير من الأعلام الأحياء.

ومن فروعها الجبهة القومية الإسلامية في السودان، وحزب النهضة في تونس، وجبهة العمل الإسلامي في الأردن، وحزب التجمع والإصلاح في اليمن.

ومثَّله: أبو الأعلى المودودي مؤسس كبرى الجماعات الإسلامية في شبه القارة الهندية، وصاحب الرسائل والكتب الفكرية التي شرَّقت وغرَّبت، وأحد الذين نقدوا الحضارة الغربية على بصيرة.

وكذلك عبد الحميد بن باديس منشئ «جمعية العلماء» بالجزائر، التي قاومت فرنسة الشعب والمجتمع الجزائري، وعملت على إحياء هويته القائمة على الإسلام والعربية، وكان من أعلامها الشيخ البشير الإبراهيمي.

ومن بعده المفكر الجزائري مالك بن نبي.

QaradawiBooks.com

وجماعة نجم الدين أربكان في تركيا.

وهناك جماعات علمية دعوية تتبنى هذا الاتجاه الحضاري مثل «ندوة العلماء» في الهند التي تجمع بين القديم النافع والجديد الصالح، وتأخذ من التراث ما صفا وتَدَع ما كدر، وقد قام عليها علماء أعلام، مثل شبلي النعماني، وسليمان الندوي، وأبي الحسن الندوي.

ومثلها جماعة «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» في واشنطن وفروعه، ويقوم عليه رجال ثقات، مثل. د. عبد الحميد أبو سليمان، ود. طه جابر العلواني، وإخوانهما. ويعمل المعهد جاهدًا في «إسلامية المعرفة» ولا سيما في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وقد أصدر مجموعة من الكتب القيمة، والمنشورات النافعة.

الإسلام في نظر هذا الاتجاه ليس إسلام عصر من الأعصار، ولا إسلام قطر من الأقطار، ولا إسلام مذهب من المذاهب، ولا إسلام فئة من الفئات.

إن الإسلام المنشود، هو «الإسلام الأول»، إسلام القرآن والسنة، سنة النبي ﷺ وسنة الراشدين المهديين من بعده. إسلام التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والرفق لا العنف، والتعارف لا التناكر، والتسامح لا التعصب، والحوار لا العزلة، والجوهر لا الشكل، والعمل لا الجدل، والعطاء لا الادعاء، والاجتهاد لا التقليد، والتجديد لا الجمود، والانضباط لا التسيب، والواسطية لا الغلو ولا التقصير.

إسلام يقوم على عقيدة روحها التوحيد، وعبادة روحها الإخلاص، وعمل روحه الإتقان، وأخلاق روحها الخير، وآداب روحها الذوق، وتشريع روحه العدل، ورابطة روحها الإخاء، وثمرة ذلك كله حضارة روحها التوازن والتكامل.

QaradawiBooks.com

ولقد تحدثت عن هذا الاتجاه الحضاري أو هذا التيار «تيار الواسطية» في أكثر من كتاب لي[١]، وعن خصائصه المميزة له، وهي الجمع بين السلفية والتجديد، والموازنة بين الثوابت والمتغيرات، والحرص على استلهام التراث، ومعايشة الحاضر، واستشراف المستقبل، والفهم الشمولي المتوازن للإسلام، في ضوء فقه جديد، يشمل فقه سنن الكون، وفقه مقاصد الشرع، وفقه الموازنات، وفقه الأولويات، وفقه حقيقة الواقع، بعيدًا عن التهوين والتهويل، وعن التجميد والتمييع والتجزئة لحقائق الإسلام ورسالته الجامعة. فمن أراد التفصيل فليرجع إليه هناك.

* * *

(١) مثل: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، وفقه الأولويات، ومستقبل الأصولية الإسلامية، وغيرها.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

رسالة أمتنا الحضارية

هل عند أمتنا رسالة حضارية للبشر؟

إذا عجزت المسيحية، وعجزت اليهودية، وبعبارة أخرى: عجز المسيحيون، وعجز اليهود أن يقدموا للبشرية قارورة الدواء، أو مضخة الإطفاء، لحريق المادية، وسعار الإباحية، وصراع النفعية ـ وهو ما تفرزه الحضارة الغربية للناس ـ فهل يستطيع الإسلام أو يستطيع المسلمون أن يقوموا بدور المنقذ للبشرية التي تكاد تشرف على الغرق؟ وبعبارة أخرى: هل عند أمتنا «مشروع حضاري» تقدمه للبشرية في دورتها المقبلة أو في قرنها الجديد؟ سواء سميناه قرن «صراع الحضارات» كما يسميه الكاتب الأمريكي «صمويل هنتنغتون» أم قرن «حوار الحضارة» على حد تعبير المفكر الفرنسي «جارودي».

والجواب: نعم عند أمتنا مشروعها الحضاري المتميز، وهو «المشروع الحضاري الإسلامي» الذي يتبناه اتجاه «الواسطية الإسلامية» الذي تحدثنا عنه.

وإن كنت أوثر ألا أستخدم عبارة «المشروع» هذه التي جرت على الألسنة والأقلام في السنوات الأخيرة ـ إلا من باب ما يسميه علماء

QaradawiBooks.com

البلاغة العربية «المشاكلة» كقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

وعلى هذا الأساس أجزنا استعمال كلمة «المشروع الإسلامي» في مقابلة «المشروع الماركسي» و«المشروع الليبرالي» و«المشروع العلماني» بصفة عامة.

والعبارة التي أوثرها هنا حقًا هي «الرسالة» فبدل أن نقول: «مشروعنا الحضاري» نقول: «رسالتنا الحضارية».

نعم لدى أمتنا رسالة حضارية:

ومما لا ريب فيه أننا أمة ذات رسالة، وهي «رسالة حضارية» متميزة، إنها رسالة جامعة، تبدأ بتزكية الفرد، مرورًا بإسعاد الأسرة، وإصلاح المجتمع، وبناء الأمة، وإقامة الدولة، وانتهاء بسلام العالم وخيره، حتى يتحقق قول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله ﷺ عن نفسه: «**إنما أنا رحمة مهداة**»[(١)].

وأذكر أن حوارًا دار بين مفكرين إسلاميين كبيرين، هما: مالك بن نبي من الجزائر، وسيد قطب من مصر، حول نسبة الحضارة إلى الإسلام، وإلى مجتمعه. فقد كان سيد قطب أعلن عن كتاب كبير يعده، سماه في أول الأمر «نحو مجتمع إسلامي متحضر»، ثم عاد فحذف من العنوان كلمة «متحضر» واكتفى بتسميته «نحو مجتمع إسلامي»، معللًا ذلك بأن نسبة المجتمع إلى الإسلام ووصفه به، يغني عن وصفه

(١) رواه الحاكم في الإيمان (٣٥/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٩٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

بالتحضر، على أساس أن الإسلام هو الحضارة الحقيقية، وما عداه من الحضارات التي تبهر الناس وهم زيف، وكتب في ذلك فصلًا من فصول كتابه الشهير «معالم في الطريق» جعل عنوانه «الإسلام هو الحضارة»[1].

وأنا مع الشهيد قطب في أن الإسلام هو الحضارة المثلى، الذي تقاس إليه الحضارات المختلفة، ليعرف صوابها من خطئها، وأصيلها من زائفها.

ولكن هذا لا يمنع من استخدام وصف «المتحضر» ـ كما قال ابن نبي ـ للمجتمع الإسلامي، باعتبارها صفة كاشفة، لا صفة منشئة، كما يقول اللغويون، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فليس هناك طائر يطير بجناحيه، وآخر لا يطير بهما.

ووصف المجتمع الإسلامي بهذه الصفة «التحضر» ليبين من أول الأمر أن الإسلام دين حضارة وعلم وثقافة، وليس كما يتصور بعض الناس أو يصورون أنه دين بداوة، لأنه نشأ في بيئة لم يكن لها فلسفة اليونان، ولا قانون الرومان، ولا مدنية الفرس، ولا حكمة الهند، ولا صنعة الصين.

ولهذا أقول بكل ثقة واطمئنان: إن لدى أمتنا «رسالة حضارية» متميزة تستطيع أن تقدمها للعالم الذي تدل كل الدلائل أنه في أشد الحاجة إليها، لو وجدت مَن يحسن تقديمها إليه، ولا سيما العالم الغربي الذي حقق الثورات العلمية الهائلة في دنيا الذرة، ودنيا الفضاء، ودنيا الإلكترونيات، ودنيا الهندسة الوراثية، ودنيا الاتصالات والمعلومات.

(١) معالم في الطريق صـ١٠٥، نشر دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

هذه الرسالة تستطيع أن تقدم للغرب الإيمان، ولا تسلبه العلم، وتعطيه الدين ولا تحرم عليه الدنيا، وتصله بالسماء، ولا تمنعه من عمارة الأرض، وتمنحه نور الوحي، ولا تحرمه نور العقل، وتقوي صلته بالخالق، ولا تقطعه عن الخلق.

مقومات هذه الرسالة العشرون:

ولهذه الرسالة الحضارية «مقومات»[1] ـ ذكرتها في محاضرة لي منذ نحو ثلاث سنوات في مؤتمر إسلامي في مدينة ديترويت بالولايات المتحدة ـ تصل إلى عشرين عدًا، نذكرها سردًا مجردًا فيما يلي، فهي:

١ ـ رسالة العقيدة الموافقة للفطرة.

٢ ـ رسالة العبادة الدافعة للعمارة.

٣ ـ رسالة العقل المهتدي بالوحي.

٤ ـ رسالة العلم المرتبط بالإيمان.

٥ ـ رسالة الإيمان المقترن بالعمل.

٦ ـ رسالة العمل الملتزم بالدعوة.

٧ ـ رسالة الدنيا المعدة للآخرة.

٨ ـ رسالة الجسم الممدود بالروح.

٩ ـ رسالة القوة المدافعة عن الحق.

(١) شرحت عشرة منها في تلك المحاضرة، وهي مسجلة على شريط، يمكن لمن يريد الرجوع إليه.

QaradawiBooks.com

١٠ ـ رسالة المال الصالح للمرء الصالح.

١١ ـ رسالة الحقوق المتوازنة مع الواجبات.

١٢ ـ رسالة الحرية الخادمة للفضيلة.

١٣ ـ رسالة الأخلاق المرتقية بالإنسان.

١٤ ـ رسالة الفرد المنتظم في أسرة ومجتمع.

١٥ ـ رسالة المجتمع الذي لا يطغى على الأفراد.

١٦ ـ رسالة الأمة المنفتحة على العالم.

١٧ ـ رسالة الدولة المقيمة للدين.

١٨ ـ رسالة التشريع المحقق للمصالح.

١٩ ـ رسالة العدل المؤيد بالإحسان.

٢٠ ـ رسالة الفن الملتزم بالقيم.

هذه مفردات مقومات هذه الرسالة الحضارية، وشرح كل منها يطول، فحسبنا هنا سردها، وعسى الله أن يهيئ لنا شرحها وإلقاء الضوء عليها، في مناسبة أخرى.

خصائص رسالتنا الحضارية:

وإذا كان لرسالتنا الحضارية مقومات تشخصها، فلا ريب أن لها خصائص تميزها، وقد ألفنا كتابًا من زمن طويل بعنوان «الخصائص العامة للإسلام» يمكن الرجوع إليه لاستبانة هذه الخصائص من: الربانية والإنسانية والشمولية والوسطية والواقعية والوضوح، والجمع بين الثبات والمرونة.

QaradawiBooks.com

وأكتفي هنا بالإشارة إلى خصيصة «الوسطية» ويمكن التعبير عنها بـ «التوازن»، وأضيف إليها خصيصة «التكامل»، وأتحدث عنهما بإيجاز.

رسالة التوازن والوسطية:

فهذه الرسالة هي الرسالة الوحيدة التي تقدم للبشرية منهجًا يتميز بالتوازن والتكامل، ونعني بالتوازن: التوسط بين طرفي الغلو والتفريط، اللذان لم يسلم منهما منهج بشري صرف، أو منهج ديني دخله تحريف البشر. وهو ما يعبر عنه القرآن باسم «الصراط المستقيم» وهو المذكور في فاتحة الكتاب، الذي يسأل المسلم ربه كل يوم أن يهديه إليه ما لا يقل عن سبع عشرة مرة في صلواته: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، فهو منهج متميز عن طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين.

وقد يعبر عنه بـ «الميزان» الذي يجب ألا يشوبه طغيان ولا إخسار كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ [الرحمٰن: ٧ ـ ٩].

فالطغيان هو الميل إلى جانب الغلو والإفراط، والإخسار: هو الميل إلى جانب التقصير والتفريط، وكلاهما ذميم.

في هذا المنهج تلتقي المتقابلات التي يحسب كثير من الناس التقاءها ضربًا من المحال، لأنها في نظرهم متضادة، والضدان لا يجتمعان، ولكنها في الإسلام تلتقي في صورة من الاتساق المبدع، بحيث يأخذ كل منها المساحة المناسبة له، دون أن يطغى على مقابله: لا طغيان ولا إخسار.

QaradawiBooks.com

فهو يضع الموازين القسط:

بين الربانية والإنسانية.

بين الوحي والعقل.

بين الروحية والمادية.

بين الأخروية والدنيوية.

بين المثالية والواقعية.

بين الماضوية والمستقبلية.

بين المسؤولية والحرية.

بين الاتباع والابتداع.

بين الواجبات والحقوق.

بين الثبات والتغير.

غير مرخصة للطباعة

وبهذا التوازن تتميَّز الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم، وتوضع في مرتبة الأستاذية، وهو ما خاطبها الله تعالى به بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقد ظهرت هذه الوسطية في حياة الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، وحياة المجتمع، والأمة المسلمة، وتجلت آثارها بوضوح في توجه الحضارة الإسلامية وتوازنها.

رسالة التكامل:

وأما التكامل فلا نعني به التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين كالذي ذكرناه في التوازن.

نسخة تجريبية

إنما نعني به اجتماع معانٍ وأمور يكمل بعضها بعضًا، ولا يستغنى بأحدها عن الآخر، لكي يؤدي الإنسان رسالته كاملة في عمارة الأرض، وخلافة الله، وعبادته، كما أمر الله تعالى، وتؤدي الأمة رسالتها في هداية الناس، وتكون كما أراد الله لها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

مثال ذلك:

العلم والإيمان.

الحق والقوة.

العقيدة والعمل.

الدعوة والدولة.

التربية والتشريع.

وازع الإيمان ووازع السلطان.

الإبداع المادي والسمو الخلقي.

القوة العسكرية والروح المعنوية.

فليس العلم مقابلًا أو مضادًا للإيمان، في نظر الإسلام، ولا في واقع الأمر، وليس الحق مقابلًا للقوة، وليست العقيدة مقابلة للعمل، ولا التربية مقابلة للتشريع، وهكذا، إنما هي معان يكمل بعضها بعضًا، ولا بد منها جميعًا.

فإن الحياة التي ينشدها الإسلام لا تستقيم ولا تتكامل إلا بهذه الأمور كلها.

QaradawiBooks.com

وعيب المناهج والأنظمة البشـرية أنها تهتم ببعـض الجوانب دون بعض، وتركز علـى بعض القيـم دون بعـض، فنراها تعنـى ـ مثلًا ـ بالاقتصاد والإنتاج، أعني بإشـباع البطون، ولكن لا تعنى كثيرًا بإشباع العقول، وقد تعنى بإشباع العقول بالعلم المادي، ولكنها لا تعنى بإشباع القلوب والأرواح برحيـق الإيمان. وقد تهتم بتيسـير المواصلات بين البلدان، علـى حين تغفل الاهتمام بالصلات الاجتماعية والنفسـية بين الناس، وأعظم من ذلك الصلة بين الإنسان وربه.

ولكن الإسلام ـ منهج الله ـ يعنى بإشـباع حاجات الإنسان كله: جسمه وعقله وروحه، ويهتم بالإنسان في كل أحواله، فردًا، وعضوًا في أسـرة، وعضوًا في مجتمـع، ومواطنًا في دولـة، ويوجه عنايته التوجيهية والتشريعية إلى الإنسان في كل مراحله وأوضاعه، الإنسان طفلًا، والإنسان شابًّا والإنسان شيخًا. الإنسان رجلًا، والإنسان امرأة. الإنسان حاكمًا، والإنسـان محكومًا، الإنسـان من حيث هو إنسان: أبيض أو أسود، شـرقي أو غربي، غني أو فقير، يعيش في ناطحات السحاب أو في الغابات والأدغال.

كما يوجه الإسلام عنايته إلى إنشاء المجتمع الفاضل، والأمة الواحدة، التي أخرجها الله للنـاس لخير الناس، وهداية النـاس، والدولة الصالحة، التي تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر.

تكامل العلم والإيمان في الإسلام:

ومن أظهر ما يتجلـى فيـه التكامـل الإسـلامـي، هـو: تكامل العلم والإيمان.

QaradawiBooks.com

فمن مظاهر التكامل في رسالة الإسلام: أن التقى فيها العلم والإيمان جنبًا إلى جنب، ولم يقم في مجتمعه ما قام في المجتمعات الأخرى من نزاع بين العلم والدين، راح ضحيته الألوف من أهل العلم والفكر، ومَن رأى رأيهم أو سار على دربهم، وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى حافل بالمجازر البشرية الرهيبة التي سيق إليها العلماء والدارسون في ظل محاكم التفتيش وغيرها.

وقد حكى الشيخ محمد عبده في كتابه «الإسلام والنصرانية، مع العلم والمدنية» جملًا من هذه الوقائع تقشعر لمجرد ذكرها الجلود، وتستنكرها في عصرنا أدنى العقول[1].

ومن حسن حظنا نحن المسلمين أن ديننا لا يضيق بالدعوة إلى العلم والتقدم، كما قد يتوهم الذين لا يعرفون الإسلام، ويريدون أن يجروا عليه ما جرى على الأديان الأخرى.

نحن نعتبر التقدم العلمي وما يثمره في الحياة من استخدامات تكنولوجية نافعة ـ تيسر على الإنسان حياته، وتوفر عليه جهده البدني والعقلي ـ عبادة بالنسبة للفرد المسلم، يتقرب بمعرفتها وإتقانها إلى ربه، كما يتقرب بالصلاة والصيام. وهي ـ بالنسبة للمجتمع ـ فريضة كفائية، يأثم المجتمع كله إذا لم يقم من أبنائه عدد كافٍ يسد كل الثغرات، ويلبي كل الحاجات، التي يتطلبها المجتمع في كل مجالاته المدنية والعسكرية.

إن مما تميز به الإسلام عن غيره من الأديان الأخرى، هو احترامه للعقل، ودعوته إلى النظر والتفكير، وحثه على العلم والتعلم، وإشادته

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية صـ٤٢ ـ ٤٨.

QaradawiBooks.com

بالعلماء وأصحـــاب العقول، وحملته على الجمـــود والجهل، وتمجيده للقراءة والكتابة والقلم، من أول آيات أنزلت من القرآن(١).

ولكن العلم في الإســـلام إنما يقوم في رحاب الإيمان وضوئه، كما قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلـق: ١]. والقراءة هي مفتاح العلم، ولكنها قراءة مؤمنة، قراءة باسم الله، الرب الذي خلق.

وبهذا يكون العلم خيرًا وبركة على الناس، لا مصدر غرور وتســـلط على الخلق، ومن هنا رأينا سليمان حينما جيء له بعرش بلقيس من سبأ إلى الشام بواســـطة العلم، لم يركبه الغرور، بل قال في أدب وتواضع: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ﴾ [النمل: ٤٠]. ورأينا ذا القرنين الذي آتاه الله من كل شيء سببًا وهيأ له من الفتوح في الشرق والغرب ما لم يتهيأ لأحد قبله، حين بنى سده العظيم يقول في خشـــوع المؤمنين: ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ [الكهف: ٩٩].

حضارتنا حضارة العلم والإيمان:

وفي ضوء هذه القيم والمفاهيم تأسســـت النهضة العلمية الكبرى في رحاب الحضارة الإسلامية المتكاملة. ترجم المسلمون كتب «الأوائل» كما كانوا يسمونهم في المشرق والمغرب، وخصوصًا: اليونان، الذين كان لهم بـــاع طويل في الفلســـفة التي كانت تشـــمل شُـــعَبها: الجوانـــب العلمية

(١) انظر في ذلك كتابنا: الرسول والعلم صـ ١٢ ـ ٦٤، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م، والعقل والعلم في القرآن الكريم صـ ٢٤٧ ـ ٢٨٢، نشـــر مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، والســـنة مصدرا للمعرفـــة والحضارة صـ ١٨٠ ـ ١٩٧، ٢١٢ ـ ٢١٥، نشـــر دار الشروق، ط٤، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

والرياضية والطبيعية، «بجوار الجانب الميتافيزيقي». فاستفاد المسلمون منها، وهذبوها، وشرحوها، وأضافوا إليها إضافات هامة، بل ابتكروا علومًا جديدة مثل علم «الجبر»، واكتشفوا المنهج الاستقرائي والتجريبي، الذي طبقوه عمليًا في مختلف جوانب الحياة، والذي اقتبسه الغربيون منهم، وقامت على أساسه النهضة الغربية الحديثة، فهي حسنة من حسنات الحضارة الإسلامية، كما شهد بذلك المنصفون من الغربيين أنفسهم.

لقد كانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة الأولى ـ وربما الحضارة الفذة في العالم لعدة قرون، يوم كانت أوروبا غارقة في بحار الجهالة والظلمات، ولا ترى الضوء إلا من جهة الشرق المسلم.

وكانت جامعات المسلمين هي جامعات العلم الكبرى في العالم في بغداد أو في القاهرة، أو في دمشق، أو في قرطبة، والأندلس، أو في غيرها من مواطن العلم في عالم الإسلام، وكان الطلاب من أنحاء العالم يفدون إلى هذه الجامعات ليتعلموا ويتقدموا.

وكانت المراجع العلمية في العالم هي المراجع الإسلامية: في الطب أو الصيدلة أو الفلك أو الفيزياء والبصريات، أو الكيمياء أو الرياضيات، أو تقويم البلدان والجغرافيا، وغيرها، وإذا أخذنا الطب مثلًا نجد هذه الكتب العربية الإسلامية كانت مراجع للعالم عدة قرون: «الحاوي» للرازي، «القانون» لابن سينا، «الكليات» لابن رشد، «التصريف لمن عجز عن التأليف» للزهراوي، إلخ.

وكانت أسماء علماء المسلمين هي ألمع الأسماء العلمية في تلك العصور، بل هي الأسماء الوحيدة المعروفة في تخصصاتها المتنوعة، مثل: الخوارزمي، والبيروني، وابن الهيثم، وابن النفيس، وابن البيطار، وغيرهم وغيرهم.

QaradawiBooks.com

إلى جـوار علماء الفلسـفة والعلـوم الإنسـانية والاجتماعية مثل: الكندي، والفارابي، والغزالي، وابن باجة، وابن طفيل، وابن مسـكويه، وابن تيمية، وابن خلدون، وغيرهم. وكان كثير من هؤلاء علماء مبرزين في علوم الدين والشريعة ومبرزين كذلك في العلوم الطبيعية والرياضية، مثل: ابن رشد، والفخر الرازي، وابن النفيس، وغيرهم.

وكانت اللغة العربية هي لغة العلم الأولى في العالم، فقد وسـعت كل العلوم المترجمة والمبتكرة، وكتبت بها في سلاسة ووضوح، ولم يَشكُ عالم يومًا ما أن اللغة ضاق صدرها بعلم من العلوم، أو عجزت عن التعبير عنه.

وكانت مدن المسـلمين في عالم الإسـلام هي التـي احتضنت هذه النهضة الشامخة، وتجلت فيها آثارها المادية: في مساجدها، وفي مدارسها، وفي قصورها، وفي قلاعها، وفي مستشفياتها، وفي شتى جوانب حياتها.

كما تجلت آثارها المعنوية في سلوك المسلمين: في صلتهم بربهم، في صلاتهـم، وصيامهم، في زكاتهـم وصدقاتهم، في أوقافهـم الخيرية التي شملت الإنسان والحيوان، في مواقفهم الإنسانية والأخلاقية التي تميزوا بها عمن سـواهم، حتى في أثنـاء الحروب، حتـى قال «غوسـتاف لوبون»: «ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب»[1]. يعني: من المسلمين.

كانت حضارتهم حضارة ربانية، كل شيء فيها موصول بذكر الله، و«**كل كلام، أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله، فهو أبتر**» **أو قال:** «**أقطع**»[2].

(١) انظر: حضارة العرب لجوستاف لوبون صـ٦٠٥، ترجمة عادل زعيتر، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٥٦م.

(٢) رواه أحمد (٨٧١٢)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. وابن ماجه في النكاح (١٨٩٤)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٢٥٥)، وصحح إسـناده الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٨٦٩٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وكانت حضارة إنسانية، تعمل لخير الإنسان، وسعادة الإنسان والسمو بالإنسان، كما تهتم بكرامة الإنسان، وفطرة الإنسان، وحرية الإنسان.

وكانت حضارة أخلاقية، لا ينفصل فيها العلم عن الأخلاق، ولا الاقتصاد عن الأخلاق، ولا السياسة عن الأخلاق، ولا الحرب عن الأخلاق.

وأعتقد أن الأمة التي صنعت تلك الحضارة القديمة، قادرة على أن تصنع حضارة جديدة، تأخذ من حضارة الغرب خير ما فيها، من وثبات العلم والتكنولوجيا، وحسن الإدارة والتنظيم، ولكنها تضيف إليها قيم الإيمان والأخلاق الربانية والإنسانية، وتضبط مسيرتها بالتشريعات الإلهية، التي وضعت «النصوص الربانية» أسسها وأصولها، وتركت للعقل المسلم حق الاجتهاد في فروعها وتفصيلاتها، مراعيًا الجمع بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية، ومعتبرًا لتغير الزمان والمكان والإنسان[1].

وبهذا تكمل حضارتنا نقص الحضارة المعاصرة، وتملأ فراغها، حين تمزج الروح بالمادة، وتصل الدنيا بالآخرة، وتربط بين التنمية والأخلاق، وتجمع بين العلم والإيمان، فليس بالعلم وحده يحيا الإنسان.

إن الإيمان ـ كما جاءت به الرسالة الخاتمة ـ هو الذي يفسر قضايا الوجود الكبرى، ويصل الإنسان بالوجود الكبير، وبالأزل والأبد، ويجعل لحياته طعمًا وهدفًا ورسالة، وهو الذي يمنحه السكينة الروحية، والطمأنينة القلبية، فلا يستبد به القلق والخوف، ولا يسيطر عليه الاكتئاب واليأس. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ

(١) انظر كتابنا: السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها صـ ٢٢٣ ـ ٣٢٩، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

إِيمَٰنِهِمۡ ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

الإيمان قوة هادية، تنير لصاحبها الطريق، وهو قوة حافزة، تدفعه إلى الخير، وهو قوة ضابطة، تصده عن الشر، وقوة جامعة، تربط أهل الإيمان برباط لا ينفصم. ﴿ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

كلمة أخيرة:

هذه رسالة الإسلام الحضارية، تقدمها أمته إلى العالم الحائر الذي شقي بالحضارة المادية الاستهلاكية التي تسوده اليوم.

وعلى الأمة أن تجتهد وتستفرغ وسعها في تبليغ هذه الرسالة إلى البشرية التائهة: بالأسوة الحسنة والنموذج العملي أولًا، ثم بالكلمة المقروءة، وبالكلمة المسموعة، وبالكلمة المشاهدة، وباللغات المختلفة، حتى تقوم على الناس الحجة، تبرأ الذمة.

ولدينا من الإذاعات الموجهة، ومن القنوات الفضائية، ومن شبكة «الإنترنت» ما يمكننا أن نوصل كلمتنا إلى أنحاء الأرض، ونحقق عالمية الإسلام بالفعل.

ولكننا ـ لكي نحقق هذا الهدف ـ نفتقر إلى قوى بشرية مدربة هائلة، لتستطيع أن تخاطب كل قوم بلسانهم، ولتبين لهم.

وإلى قدرات مالية كبيرة، لتمويل ما تحتاجه هذه الآليات الخطيرة من أجهزة وأدوات، ومن تفريغ للقوى البشرية القادرة على العطاء المتميز.

QaradawiBooks.com

وقد سمَّيت الدعوة إلى الإسلام عن طريق «الإنترنت» جهاد العصر، فهو يغنينا عن تجييش الجيوش، لإيصال دعوة الإسلام إلى البلدان والشعوب البعيدة.

وبهذا نستطيع برسالتنا الحضارية ـ إذا أحسنا عرضها بلغة عصرنا ـ أن نفتح لها آفاقًا وأقطارًا، فتحًا سليمًا، لا تراق فيه قطرة دم، فلا نَشهَر سيفًا، ولا نطلق مدفعًا، ولا نعلن حربًا.

إنه «الفتح السلمي» الذي أصَّله الإسلام، في «صلح الحديبية» المعروف، والذي عقد بين الرسول ﷺ وبين مشركي قريش، لإقامة هدنة بين الطرفين، يكفُّ كل منهما يده عن الآخر، فسمى القرآن ذلك: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، ونزلت في شأنه «سورة الفتح» وسأل بعض الصحابة الرسول الكريم: أَوَفتح هو، يا رسول الله؟ قال: «**إي والذي نفس محمد بيده، إنه لفتح**»[(١)]. وانتشر الإسلام في هذه الفترة كما لم ينتشر في أي فترة مضت.

وعلى ضوء هذا، أفسر ما بشر به الحديث النبوي الشريف من «فتح رومية» بعد فتح «القسطنطينية»[(٢)] أنه فتح الدعوة والفكر، لا فتح السيف والمدفع. وفتح رومية يعني عودة الإسلام إلى أوربا، بعد أن أخرج منها

(١) رواه أحمد (١٥٤٧٠)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الجهاد (٢٧٣٦)، والحاكم في قسم الفيء (١٣١/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، عن مجمع بن جارية الأنصاري.

(٢) إشارة إلى حديث عبد الله بن عمرو، بينما نحن حول رسول الله ﷺ، نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولًا: قسطنطينية أو رومية؟ رواه أحمد (٦٦٤٥)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. وقال الهيثمي في المجمع (١٠٣٨٥): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبي قبيل وهو ثقة. والحاكم في الفتن والملاحم (٥٥٥/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٤).

QaradawiBooks.com

مرتين، وهذا هو فتح القرن القادم إن شاء الله، القرن الحادي والعشرين، فتح العقول بالمعرفة، والقلوب بالإيمان، والحياة كلها بتعاليم الإسلام. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤، ٥]، ويتحقَّق وعد الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ٥٣].

* * *

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الفهارس العامة

- فهـــرس الآيات القرآنيـــة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

غير مسموح بطباعة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾	٦	٦٦
سورة البقرة		
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... ﴾	١٤٣	٦، ٦٧
سورة آل عمران		
﴿ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾	١٠١	٧٥
﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ... ﴾	١١٠	٦، ١٠، ٦٨
سورة النساء		
﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾	١٤٢	٦٢
سورة المائدة		
﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي ... ﴾	٣	٥٢
سورة الأنعام		
﴿ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ ﴾	٣٨	٦٣

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأنفال		
﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾	٣٠	٦٢
سورة الرعد		
﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ ...﴾	٢٨	٧٥
سورة النحل		
﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	٨	١٣
﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ...﴾	٨٩	٥٤
سورة الكهف		
﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾	٩٩	٧١
سورة طه		
﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾	٥٠	٢٣
سورة الأنبياء		
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾	١٠٧	٦٢
سورة النور		
﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾	٣٥	٢٧
﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ ...﴾	٤٠	٢٤
﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	٤٦	١١
سورة النمل		
﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ ...﴾	٤٠	٧١

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الروم		
﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾	٤، ٥	٧٧
سورة يسَ		
﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ...﴾	٦٠ ـ ٦٢	٦
سورة الشورى		
﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾	٥٣	٧٧
سورة الفتح		
﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾	١	٧٦
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾	٤	٧٤
سورة الرحمٰن		
﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ...﴾	٧ ـ ٩	٦٦
سورة العلق		
﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾	١	٧١

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

غير مرخصة للطباعة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
إنَّ في الجنة غُرفًا يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنها من ظاهرها	٧
إنما أنا رحمة مهداة	٦٢
إي والذي نفس محمد بيده، إنه لفتح	٧٦
أيّها الناس، إنما أنا رحمة مهداة	٧
ك	
كل كلام، أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله، فهو أبتر	٧٣

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

فهرس الموضوعات

❖ **من الدستور الإلهي للبشرية** ٦

❖ **من مشكاة النبوة الخاتمة** ٧

• **مقدمة** ٩

❖ **الارتقاء المادي الهائل في الحضارة الغربية** ١٣

شقاء الإنسان في هذه الحضارة ١٤

سر المعاناة في هذه الحضارة ١٥

تحذيرات رجال العلم والفكر والأدب ١٦

عجز العلم في حضارة اليوم عن إسعاد البشرية ١٩

شهادات كبار العلماء ١٩

علم الغرب معزول عن الدين ٢٣

عجز الفلسفة أن تسعد البشرية ٢٤

صراع الفلسفات وتناقضها ٢٥

حصاد الفلسفة خلال القرون ٢٧

❖ **لا إنقاذ للبشرية بغير الدين** ٣٣

عجز المسيحية عن القيام بدور المنقذ ٣٥

اليهودية أشد عجزًا ٤١

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

❖ **لم يبقَ غير الإسلام منقذًا** **٤٥**
الاتجاهات السبعة السائدة في موقفها من الإسلام ٤٥
١ ـ الاتجاه الاجتراري ٤٦
٢ ـ الاتجاه الانتحاري ٤٧
٣ ـ الاتجاه الاعتذاري ٥٠
٤ ـ الاتجاه الافتخاري ٥١
٥ ـ الاتجاه الاختصاري ٥٢
٦ ـ الاتجاه الاشتجاري ٥٤
٧ ـ الاتجاه الحضاري ٥٦
❖ **رسالة أمتنا الحضارية** **٦١**
هل عند أمتنا رسالة حضارية للبشر؟ ٦١
نعم لدى أمتنا رسالة حضارية ٦٢
مقومات هذه الرسالة العشرون ٦٤
خصائص رسالتنا الحضارية ٦٥
رسالة التوازن والوسطية ٦٦
رسالة التكامل ٦٧
تكامل العلم والإيمان في الإسلام ٦٩
حضارتنا حضارة العلم والإيمان ٧١
كلمة أخيرة ٧٥
• **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** **٨١**
• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** **٨٥**
• **فهرس الموضوعات** **٨٧**

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com